فصاحة المفردين التقعيد البلاغي و النظم العالي

دراسة موازنة

إعـداد

دكتور

ممدوح شـــعراوي محمود محمد

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقـــد

في كليـــة اللغة العربيـــة بأسيـوط

جامعة الأزهر الشريف – جمهورية مصر العربية

١٤٤٤ هـ- ٢٠٢٣م

فصاحة المفرد بين التقعيد البلاغي والنظم العالي دراسة موازنة

ممدوح شعراوي محمود محمد
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني:
mamdouhmohammed.47@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث الشروط التي ارتضاها السادة العلماء من أهل البلاغة لفصاحة الكلمة المفردة ، تلك الشروط التي أسسوا قواعدها ورفعوا بنيانها علىٰ ركنين أساسيين هما: الأول : الاعتماد علىٰ لهجة قريش من بين سائر اللهجات، خاصة الجانب الشعريَّ منها ، مع الميل إلىٰ المذهب النحوي الخاص بأهل البصرة ، القائم علىٰ النزعة القياسية دون النزعة السماعية ،والركن الآخر هو : قطع الكلمة عن سياقها والنظر إليها مجردة دون النظر إلىٰ السياق السابق واللاحق من الكلام ،وقد اكتفىٰ السادة الأفاضل بشواهد معينة في هذا الشأن كانت بمثابة الدليل علىٰ صحة ما ذهبوا إليه من شروط جعلوها عنوانًا لفصاحة الكلمة المفردة، ولكن الناظر إلي تلك الشروط، يتبين له أن بعضا منها يعتريه الخـلل ، وذلك لأن الـبيان العالي (القرآن- والحديث النبوي – والشعر العربي في زمن الاستشهاد اللغوي) قد وردت فيه كلمات فصيحة قد استدعاها السياق ، لكنها تخالف شروط القاعدة البلاغية ، الخاصة بتنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوي والكراهة في السمع ،ولما كان الأمر كذلك آثر الباحث تتبع تلك الشروط التي أثبتها الأئمة في كتبهم عن فصاحة المفرد ، في محاولة لبيان موافقتها أو مخالفتها للغة البيان العالي ، ومن هنا جاء هذا البحث بالعنوان الموضح أعلاه ، ومما يجب الإشارة إليه في هذا

المقام أن الهدف من هذا البحث يتمثل في النظر إلىٰ فصاحة المفرد من زاوية غير التي حصرها فيها البلاغيون، عن طريق توسيع دائرة النظر في السياق الذي وردت فيه الكلمة، دون قصرها علىٰ الشروط التي قعدها البلاغيون فقط. ومما ينبغي لفت النظر إليه في هذا المقام أن هذه الدراسة اتخذت من المنهج الوصفي التحليلي مهيعًا واضحًا تسير عليه مباحث هذه الدراسة حتىٰ تصل إلىٰ نهايتها... والله المستعان.

الكلمات المفتاحية: فصاحة- المفرد- التقعيد- النظم- العالي.

Singular Disclosure between Rhetorical Complexity and High Systems, a balancing study

Mamdouh Shaarawy Mahmoud Mohamed.

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language in Assiut, Al-Azhar University, Egypt.

Email: mamdouhmohammed.47@azhar.edu.eg

Abstract:

This research deals with the conditions that the scholars among the people of rhetoric accepted for the disclosure in the singular word, those conditions that they founded its rules and raised its structure on two basic pillars: first, relying on the Quraish dialect among all the other dialects, especially the poetic aspect of it, with the tendency towards the grammatical doctrine specific to the people of Basra, which is based on the standard tendency without the auditory tendency. The other pillar is: to cut off the word from its context and to look at it abstractly without looking at the context before and after it, and the honorable masters were satisfied with certain evidences in this regard which served as evidence of the validity that which they went to, which they made a title for disclosure of the singular word. However, looking at these conditions, it is clear that some of them were flawed, that's because the high statement (the Qur'an, Hadith the Prophet, and Arabic poetry at the time of linguistic martyrdom) contained disclosure words which the context conjured up. But it contravenes the conditions of the rule of rhetoric, concerning the dissonance of letters, the strangeness, the contradiction of linguistic analogy, and the loathing of hearing, and since this was the case, the researcher followed the conditions established by imams in their

books about the disclosure of the singular, in an attempt to indicate their agreement or disagreement of the language of the high statement, and hence this research came with the title. described above, It must be pointed out in this regard that the aim of this research is to look at the eloquence of the singular from a perspective other than the one in which the rhetoricians confined it, by expanding the circle of consideration in the context in which the word was mentioned, without limiting it to the conditions that the rhetoricians only set. What should be noted in this respect is that this study has taken the descriptive analytical approach as a clear foundation that the investigations of this study follow until it reaches its end... Allah is the one sought for help.

Keywords: Disclosure - Singular - Complexity - Systems – Highe.

مقدمة

الحمد لله وكفىٰ، والصلاة والسلام علىٰ نبيه المصطفىٰ، سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أهل الإيمان والوفا، ومن سار علىٰ دربهم، واقتدىٰ بهم إلىٰ يوم الدين ...

ثم أما بعد...

فإن المتأمل في كتب اللغة علىٰ وجه العموم، والبلاغة علىٰ وجه الخصوص يتبين له أن مسألة الفصاحة قد أخذت من مداد العلماء، ونفحات عقولهم، ونفثات يراعهم، وأقلام محابرهم، ما يحمدون علىٰ تدوينه، ونشره بين طلاب العلم وَتَبْيِينِه، وكيف لا؟ وتقعيدهم لها بناء تليد، وركن وطيد يأوي إليه ناشئة الفصحىٰ قبل الشُّداة منهم، ومتعلموا البيان قبل الفائقين فيهم، وذلك للوقوف علىٰ أسس التفاضل بين المفردات، وإدراك التمايز الكائن في وضع اللبنات داخل الجملة أو البيت أو القصيدة.

وفي سبيل الوقوف علىٰ هذا التمايز وضعوا لذلك شروطًا استعانوا بها علىٰ دخول الكلمة باب الفصاحة أو خروجها منه، ولكن الناظر إلىٰ هذه الشروط يتبين له أن أمرها قائم علىٰ ركنيين أساسيين:

الأول: اعتماد أصحاب التقعيد ـ بشكل رئيس ـ علىٰ لهجة قريش من بين سائر لهجات العرب، خاصة الجانب الشعري منها، الذي استبد بطاقة هؤلاء العلماء، ومن ثم تراهم قد اعتمدوا عليه، ومالوا نحوه وصدّروه في أغلب أمثلتهم التي أسسوا بها أمر الفصاحة، ثم رفعوا صرح هذا التقعيد علىٰ أسس وقواعد المذهب البصري، القائم علىٰ النزعة القياسية دون السماعية منها، ومن هنا وسموا كل لفظ أو تركيب خارج عن هذا المذهب بالشذوذ أو مخالفة القياس.

وأما الركن الآخر فهو: قطع الكلمة عن سياقها، والنظر إليها مجردة دون اعتبار للسابق واللاحق من الكلام، والذي بدوره أدىٰ إلىٰ اصطفاء تلك الكلمة دون

سواها من الكلمات التي مـن الممكن أن تؤدي معناها في الظاهر، ومن هنا وُسمت كلمة مثل (مستشزرات) بالتنافر بين حروفها، وكلمة مثل (اطلخم) بالثقل، وهكذا كلمات كثيرة جاءت مخالفة لشروط الفصاحة التي ارتضاها البلاغيون ، مع أنه بمراجعة السياق الواردة فيه ، يتبين أن أكثرها يُحاكي ما تصفه ، ويُظهر ما تدل عليه بما يستلزمه هذا السياق .

ثم أردف البلاغيون هذه الشروط بأمثلة شهيرة، أصبحت في باب الفصاحة بَدْراً، ويُعلىٰ لها أرباب القواعد قَدْراً ، ومن ثَّم كان الخارج عن هذه الشروط غير صحيح، واستعماله نثراً أو نظمًا ليس بالفصيح، مع التشنيع علىٰ الناطق بذلك والإنكار عليه في بعض الأحيان، ولسان حالهم يقول له : كيف تَعُدُّ نفسك من الشعراء، أو خطيبًا من البلغاء، وليس لديك من الذائقة البيانية ما تستدعي به من الألفاظ الفصيحة ما تعبر به عن المعاني المليحة ؟

ولكن الناظر إلىٰ هذا التقعيد، وذلك البناء التليد ـ في باب الفصاحة ـ يرىٰ أنه قد اكتفىٰ بشواهد معادة مكرورة هنا وهناك، فلا تكاد تفارق يدُك كتاب أحدهم، إلا وترىٰ في كتاب الآخر أمثلة ونماذج علىٰ نحو ما كان في الكتاب الأول بنظرة واحدة، لا يختلف في أمرها اثنان، ولا يَنْتَطحُ في شأنها عَنْزَان، فما عَدَّه الأول عيبًا في الكلمة، يسوقه لك الآخر سوق السيل إلىٰ مجراه، إما بلفظه وإما بمعناه، في صورة:

تُـوافِيْ بهَـا الرُّكْبَـانُ في كُـلِّ مَوْسِـمٍ ∴ وَيَحْلـو بـأفْوَاه الـرُّوَاةِ نَشِـيْدُهَا(١)

وأصبح الخروج من دائرة هذا التقعيد إلىٰ رحابة التغيير والتجديد ، أمراً محرمًا

(١) البيت:من الطويل وهو في الدر الفريد وبيت القصيد لـ/ محمد بن أيدمر المستعصمىٰ ٨/ ٣٦٠ تح د/ كامل سلمان الجبوري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط الأولىٰ ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

وقولاً مُستعظمـًا.

ولكن المدقق في هذه الشروط ، يبين له أن بعضـًا منها يعتريه القصور ويُداخله الخلل والفتور، ذلك لأن البيان العالي [١] في نظمه قد وردت فيه كلمات فصيحة وتراكيب مليحة تخالف شروط أهل التقعيد جملة وتفصيلاً، وإلا فكيف لنا أن نأخذ بالشرط القائل: من شروط فصاحة الكلمة أن تكون مبنية من حركات خفيفة، فإذا توالىٰ في الكلمة حركتان ثقيلتان أصبحت ثقيلة في النطق[٢] = والله سبحانه وتعالىٰ يقول في كتابه : ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف ١٠١] لتجد أن الحركات الثقيلة توالت أربع مرات وليس مرتين كما زعموا، وليس في كلمة رُسُلُهُم شيء من الثقل المزعوم.

وكيف لنا أن نصدق بأن طول الكلمة عن المعتاد يخرجها من دائرة الفصاحة والبيان العالي يقول : ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود ٢٨] ويقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [سورة الحجر:٢٢]، فلو صدقوا فيما ذهبوا إليه لخرجت تلك الكلمات وأمثالها من باب الفصاحة ـ وحاشا لكلام الله أن يكون كذلك ـ

وإذا كانت الغرابة عند القوم هي: كون الكلمة غير ظاهرة الدلالة علىٰ المعنىٰ المراد، وتحتاج في معرفتها إلىٰ التنقيب عنها في كتب اللغة، وجعلوا من ذلك : (تكأكأتم... ومُسَرَّجَا) فماذا يقولون في كلمة (الثَّعَارير) الواردة في قوله عليه الصلاة والسلام : (إن قوما يخرجون من النار ... أمثال الثعارير) وماذا عن (الدَّعْثَرة) في

(١) المقصود بالبيان العالي : القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، أو الشعر العربي أو الأقوال المأثورة عند العرب في زمن الاستشهاد اللغوي.

(٢) هذا وما بعده سيأتي مفصلاً بمواضعه والقائلين به في ثنايا البحث.

قوله ﷺ : (فإنَّ الغَيْلَ يُدرِكُ الفارسَ فيُدَعثِرُه عن فَرَسِه..)... إلخ الألفاظ الغريبة التي وجدت في البيان النبوي، وليس المخاطب بها الأعراب الجفاة، وإنما الصحابة الكرام.

وكيف للناظر أن يَعُد حذف النون من قول الشاعر:

.... ∴ وَلاكِ اسْقِنِي إِنْ كـــانَ مَـــاؤُك ذا فَضْـــلِ

من مخالفة القياس اللغوي، وفي ذات الوقت يجد النظم الكريم يحذف مثل هذه النون فيقول : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [سورة النحل:١٢٧]. ثم يثبتها في موطن آخر فيقول: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [سورة النمل:٧٠].

ولماذا نُسلم بكراهة السمع (للجِرِشَّي ... والْحَقَلَّدِ) والقرآن يقول : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم ٢٢] ... إلىٰ غير ذلك مما ورد في البيان النبوي وأقوال الصحابة ... دون أن نرىٰ أحدا ينسب ما ورد عن هؤلاء إلىٰ الكراهة في السمع، أو خروج الكلمة من باب الفصاحة والبيان.

ولما كان الأمر كذلك آثر الباحث تتبع الشروط التي أثبتها الأئمة في مدوناتهم عن الفصاحة في محاولة لبيان موافقتها للغة والبيان العالي أوْ لا.

ولما كانت الشروط المتعلقة بالفصاحة منها ما يختص بالمفرد ومنها ما يختص بالجملة، رغب الباحث في الاقتصار علىٰ الشروط المتعلقة بفصاحة المفرد والوقوف عندها، حتىٰ يتمكن من الإلمام بتلك الشروط، ومعرفة مدىٰ انسجامها مع النظم العالي، أو تصادمها معه، ومن ثم جاء البحث بعنوان :-

(فصاحة المفرد بين التقعيد البلاغي والنظم العالي)

دراسة موازنة

وليس المراد من هذا البحث تتبع الشروط الخاصة بفصاحة المفرد وتقويض

أركانها، أو هدم بنيانها ، كلا، ولكن الغاية من ذلك بيان بعض القصور الذي اعترىٰ بعض الشروط في التأسيس لفصاحة الكلمة المفردة، وإلا فما كان من الشروط منسجما ومتلائمًا مع البيان العالي، فلا اعتراض للباحث عليه لا من قريب ولا من بعيد ... والله ولي التوفيق.

أسباب اختيار الموضوع:

كان هناك بعض الأسباب التي دفعت الباحث إلىٰ طرق الباب علىٰ هذا الموضوع... منها :

- وجود كثير من الألفاظ في النظم العالي تخالف شروط أهل البلاغة في التقعيد لفصاحة المفرد.
- الخوف من اتهام البيان العالي بالقصور ممن ليسوا علىٰ قدم راسخة في هذا العلم، وذلك عند النظر إلىٰ هذه الشروط والاحتكام إليها في تفضيل لفظ علىٰ آخر.
- الرغبة في أن يكون هذا البحث لبنة جديدة في الدرس البلاغي يُعاد من خلالها النظر في الشروط الموضوعة لفصاحة المفرد.

إشكالية البحث:

هناك عدة عوائق اعترضت سبيل الباحث أثناء الولوج إلى ساحة هذا البحث، وقد نبتت على تُربتها إشكاليته، ومن أهمها:

أولاً: ندرة الأبحاث العلمية التي تناولت مثل هذه الموضوعات، مما يجعل أمر الكتابة فيها عسيراً شيئًا ما .

ثانيا: الخوف من ادّعاء الجرأة علىٰ السادة العلماء وتخطئتهم في بعض ما ذهبوا إليه عند التأسيس لفصاحة المفرد.

ثالثا: صعوبة الإبقاء علىٰ الشروط التي خالفها النظم العالي في فصاحة المفرد دون تغييرها وإحلال غيرها مكانها .

الهدف من البحث:

يتمثل الهدف من هذا البحث في النظر إلىٰ فصاحة المفرد من زاوية غير التي حصرها فيها البلاغيون، عن طريق توسيع دائرة النظر في السياق الذي وردت فيه الكلمة، دون قصرها علىٰ الشروط التي قعدها البلاغيون فقط.

ومما ينبغي لفت النظر إليه في هذا المقام أن هذه الدراسة اتخذت من المنهج الوصفي التحليلي مهيعًا واضحًا تسير عليه مباحث هذه الدراسة حتىٰ تصل إلىٰ نهايتها... وكانت خطواته قائمة علىٰ النحو الآتي:

١- بيان الشروط التي ذكرها البلاغيون فيما يختص بفصاحة المفرد.

٢- ذكر بعض الأمثلة التي أوردها البلاغيون في هذا الشأن وبيان ما فيها من عيب جاء مخالفًا للقاعدة البلاغية.

٣- التعقيب بما ورد من أمثلة في البيان العالي مخالفة للشروط التي ارتضاها البلاغيون للوقوف علىٰ فصاحة المفرد من أين تكون .

الدراسات السابقة:

لم يقع بين يدي الباحث شيء من الأبحاث العلمية التي تخصصت في هذا الشأن... إلا ما كان من لمحات خاطفة ورشفات سريعة ذكرت في بعض الكتب هنا وهناك... لتكون هذه اللمحات وتلك الرشفات حافزاً للباحث لبذل غاية الطاقة في سبيل جمع شتات هاتيك الومضات لتكون بحثًا قائمًا علىٰ سوقه يعجب القراء بإذن الله تعالىٰ.

هذا وقد كان من قدر الله تعالى أن يأتي هذا البحث في أربعة مباحث تسبقها مقدمة وتوطئة وتعقبها خاتمة وبعض الفهارس.

أما المقدمة: فذكرت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره وإشكاليته والهدف منه والمنهج المتبع والدراسات السابقة.

وأما التوطئة فذكرت فيها بداية نشأة الفصاحة كيف كانت ، ثم عرجت علىٰ

عصورما قبل التقعيد ، إلىٰ أن وصل الأمر إلىٰ ما هو عليه الآن .

وأما المبحث الأول: فجاء بعنوان : (خلو الكلمة المفردة من تنافر الحروف).

وأما المبحث الثاني: فكان بعنوان : (الغرابة معناها وأسبابها).

وأما المبحث الثالث: فعنوانه : (مخالفة القياس والمراد منها) .

وأما المبحث الرابع: فجاء بعنوان : (الكراهة في السمع وحقيقتها) .

ثم تأتي بعد ذلك الخاتمة وفيها أهم النتائج التي انتهت إليها تلك الدراسة، ثم فهرس المصادر والمراجع.

توطئة :

معلوم لدىٰ أهل البيان أن نشأة الفصاحة كانت في بدايتها نشأة نقدية بحتة، وكانت تُعنىٰ أول ما تُعنىٰ بتربية الذوق علىٰ استعمال اللفظ الفصيح في مكانه اللائق من السياق، وقد ضربت هذه النشأة بجذورها في تربة البيئة الجاهلية، ونمت فروعها وتسامقت علىٰ هضابها وبين وديانها، ومن ثَمَّ كان الجاهليون من الشعراء أول من ضرب بسهم وافر في التأسيس لهذه النشأة، لما لهم من ذوق شفيف وسليقة فطرية حية.

وما أحسب أن ما كان يقوم به عبيد الشعر ـ أمثال: زهير والنمر بن تولب والحطيئة ـ في شعرهم من مراجعة وإصلاح ومُدارسة وتهذيب إلا لبنة في صرح هذه الفصاحة وحجراً في أساسها المتين، وما تعليق طرفة علىٰ خاله المتلمس حين أنشده (من الطويل) :

وقَـدْ أَتَنَاسَىٰ الهَـمَّ عِنْـد احْتِضَـارِهِ ∴ بِنَـاجٍ عَـلَيْهِ الصَّيْعَـرِيَّةُ مُكْـدَمِ (١)

(لقد استنوق الجمل) إلا دراية بمواقع الكلمات وكيفية وضعها في مكانها اللائق بها. وما احتكام امرئ القيس وعلقمة بن عبدة الفحل إلىٰ أم جُندب في وصف فرسيهما ، وتفضيل وصف علقمة علىٰ وصف امرئ القيس إلا نوع من الإحساس بمواطن الجودة في قصيدة علقمة دون قصيدة صاحبه (٢)

ثم تخطو نشأة الفصاحة خطوة أخرىٰ لتضع قدمها في عصر صدر الإسلام ، لترىٰ فيه النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ يكره السجع المتكلف، ويقول لصاحبه منكراً

---

(١) مقدمة ديوان طرفة بن العبد ص٥ تح/ مهدي محمد ناصر الدين- دار الكتب العلمية- ط: الثالثة – ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

(٢) ينظر تفصيل الخبر في : الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ١/ ٢١٢- دار الحديث- القاهرة – ١٤٢٣هـ .

عليه: (أسجعًا كسجع الكهان) [1] وترىٰ بُعده ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن الوحشي الغريب في كلامه ومخاطباته ، ثم تراه يُعجب ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ بقصيدة كعب (بانت سعاد) ويخلع بردته عليه تقديراً منه لفصاحتها وحسن بنائها وروعة مقصدها، ثم ترىٰ الفاروق ـ أيضًا ـ يُعجب بفصاحة زهير ويمدحه بقوله : (كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما فيه) [2] ثم تنمو هذه النشأة رويداً رويداً حتىٰ تصل إلىٰ عصر بني أمية الذين أشعلوا فتيل الحركة النقدية ـ بعد أن استتب لهم الأمر ـ لتمييز الجيد من الرديء في المنظوم والمنثور ، إلىٰ أن جاء ابن سنان الخفاجي ومن بعده من العلماء فقعدوا للفصاحة قواعدها وشيدوا أركانها ، ووضعوا لها شروطًا معينة تخص الكلمة والكلام ، ثم اختاروا شواهد هذه الشروط من المستعمل الشائع عند العرب ، كدليل علىٰ صحة ما ذهبوا إليه . ثم تتابع البلاغيون في مؤلفاتهم علىٰ التمسك بهذه الشروط ، وجعلوها مقياسًا فاصلاً يركنون إليه لمعرفة فصاحة الكلمة من عدمها ، ثم اقتفىٰ اللاحق بالسابق في إيراد تلك الشواهد التي تثبت صحة ما ذهبوا إليه ، ومن هنا كان الخروج علىٰ هذه الشروط أمراً عسيرا وليس ميسورا .ولكن الناظر في الشواهد العربية الواردة في نظمها العالي يبين له أن هناك شواهد متعددة خالفت في نظمها كثيراً من تلك الشروط التي ارتضاها البلاغيون لفصاحة الكلمة والكلام ،لأننا لا نستطيع أن نحكم علىٰ هذه الشواهد بالشذوذ أو مخالفة القياس أو كونها غير فصيحة ، كيف؟ وقد ورد بعضها في كتاب الله تعالىٰ ، وبعضها علىٰ لسان أفصح

(١) ينظر تفصيل الخبر في : كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٢٦١ تح/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ١٤١٩هـ .

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني ١/ ٩٨ تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ـ ط الخامسة ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

العرب ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وبعضها عمن أُخذت عنهم اللغة ، ومن ثَمَّ كان الأجدر النظر في هذه الشروط ومراجعتها مرة أخرىٰ ، وإدخال تعديل علىٰ بعض منها ؛ حتىٰ لا تُتهم الشواهد الواردة في النظم العالي بالقصور أو مخالفة القاعدة البلاغية ...لأن الأجدر أن تُبنىٰ القاعدة علىٰ مثل هذه الشواهد ، لا أن نُخضع هذه الشواهد للقاعدة البلاغية ... والله أعلم

المبحث الأول

خلو الكلمة المفردة من تنافر الحروف

ذكر العلماء شروطًا يجب توافرها في الكلمة المفردة التي تكتسي ثوب الفصاحة وتزدان بحلة البيان، حتىٰ تكون بنجوة من العيب وبعيدة عن سهام النقد، ألا وهي: (خلوها من تنافر الحروف، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي، والكراهة في السمع). (١)

أما تنافر الحروف فهو " وصف في الكلمة يوجب ثقلها علىٰ اللسان وعسر النطق بها **"**. (٢)

ثم ذكروا أن هذا التنافر قد يكون شديداً متناهيًا في الثقل كما في قول الأعرابي حين سئل عن ناقته فقال : **"** تركتها ترعىٰ الْهُعْخُع **"** فكلمة (الهعخع) كلمة شديدة الثقل علىٰ الأذن ، شديدة الصعوبة علىٰ اللسان لتقارب حروفها من مخرج واحد وهو الحلق، والهعخع : شجر مُرُّ المذاق كريه الرائحة . (٣)

وقد يكون التنافر في الكلمة المفردة أقل ثقلاً من سابقه، وقد مثلوا له بقول امرئ القيس : (من الطويل)

---

(١) ينظر في ذلك: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ـ بهاء الدين السبكي ١/ ٥٧ تح/ عبد الحميد هنداوي ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط الأولىٰ ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م ، وخصائص التراكيب د/ محمد أبو موسىٰ ص ٦١ ـ مكتبة وهبة ـ ط السادسة ١٤٢٥ه ٢٠٤٤م

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ١/ ٢٢ تح/ محمد عبد المنعم خفاجي ـ دار الجيل ـ بيروت ط ٣.

(٣) ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ١/ ١٤٧ تح/ فؤاد علي منصور ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

وفَـرْعٍ يَـزِينُ الْمَـتْنَ أَسْـوَدَ فَـاحِمٍ ∴ أَثِيـثٍ كَقِنْـوِ النَّخْلَـةِ الْمُتَعَثْكِـلِ

غَـدَائِـرُهُ مُسْـتَشْزِرَاتٌ إِلىٰ العُـلا ∴ تَضِلُّ العِقَاصُ فِي مُثَنَّىٰ وَمُرْسَلِ (١)

فكلمة (مستشزرات) كلمة ثقيلة في السمع يتعثر اللسان عند النطق بها، لتقارب حروفها عند خروجها من اللسان ـ ما عدا الميم ـ ومنشأ هذا الثقل هو توسط الشين المعجمة ـ التي هي من الحروف المهموسة الرخوة ـ بين التاء ـ التي هي من الحروف المهموسة الشديدة ـ والزاي المعجمة ـ التي هي من الحروف المجهورة.(٢)

ومن البلاغيين من جعل طول الكلمة سببًا لثقلها علىٰ اللسان، وجعل من شروط فصاحتها أن تكون : معتدلة غير كثيرة الحروف، فإنها متىٰ زادت علىٰ الأمثلة المعتادة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة، وجعل من ذلك قول أبي تمام:(من الكامل)

فلأذربيجـانَ اخْتِيَـالٌ بَعْـدَمَا ∴ كانَـتْ معَـرَّسَ عَبْـرةٍ وَنَكَـالِ

سـمَجَتْ وَنَبَّهْنَـا علـىٰ اسْتِسْـمَاجِها ∴ مـا حَوْلَهَـا مِـنْ نَضْـرةٍ وجَمَـالِ (٣)

وقال: (فلأذربيجان) كلمة رديئة لطولها وكثرة حروفها وهي غير عربية، ولكن

(١). ديوان امرئ القيس ص ٤٣ تح/ عبد الرحمن المصطاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط الثانية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

(٢) درر الفرائد المستحسنة في شرح منظومة ابن الشحنة (في علوم المعاني والبيان والبديع) لابن عبد الحق الطرابلسي (ت ١٠٢٤هـ) ص ١٥٢ تح/ سليمان حسين العميرات ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ لبنان ـ ط الأولىٰ ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م.

(٣) ديوان أبي تمام ص ٢٦٠ تح/ محي الدين الخياط ـ طبعة نظارة المعارف العمومية سنة ١٩٠٠م.

هذا وجه قبحها، وكذلك قوله في البيت الثاني (استسماجها) ردئ لكثرة الحروف، وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد في الألفاظ إلىٰ الشاذ النادر، ونحو من هذا قول أبي الطيب: (من الكامل)

إنّ الكِـــرامَ بِـــلا كِـــرامٍ مِـــنْهُمُ ∴ مِثْـلُ القُلـوبِ بـلا سُـوَيداواتِهَا (١)

وقال: (سويداواتها) كلمة طويلة جداً فذلك لا أختارها . (٢)

ويرجع البلاغيون السبب في تنافر الحروف وثقلها علىٰ الأذن واللسان إلىٰ قرب مخارجها أو تباعدها، أي أن تكون حروف الكلمة المتباعدة تخرج من مخارج قريبة جداً، أو من مخارج بعيدة جداً، وذلك القرب الشديد بين الحروف يكون بمنزلة مشي المقيد الذي يثقله القيد، فلا يكاد ينقل قدمه ليضعها بعيداً إلا ويضطره القيد إلىٰ أن يعود إلىٰ موضع قريب جداً، ومثل ذلك حاصل في رفع اللسان ورده إلىٰ مكانه، وإذا ما بَعُد ما بين الحروف البعد الشديد كان ذلك بمنزلة الطَّفْر، أي : الوثوب في العَدْو، كأن تَثِبَ من الحلق إلىٰ اللسان أو الشفة، وكل من القرب الشديد والبعد الشديد صعب علىٰ اللسان، والعرب يكرهون مثل هذا، ومِنْ ثَمَّ أقاموا لغتهم علىٰ الخفة ، لذا تراهم يعمدون إلىٰ إدغام الحرفين المتماثلين والمتقاربين مثل: شدَّ، وأصله: شدد، ومثل : اضطر ، وإن كتبت ضاداً وطاءً إلا أن النطق يجمعهما في صوت واحد، فإذا ما فصل بين الحرفين المتقاربين حرف زال هذا الثقل. (٣)

وزاد بعض العلماء أمراً آخر يؤدي إلىٰ الثقل في نطق الكلمة ـ غير التقارب

(١) ديوان المتنبي ص ١٨٦ ـ دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

(٢) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٨٧ ، ٨٨ بتصرف ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤٠٢هـ.

(٣) ينظر: النكت في إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٩٦ ، تح/ محمد خلف الله ـ د/ محمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط الثالثة ١٩٧٦م.

والتباعد في مخارج الحروف ـ هو : توالي الحركات الثقيلة فقال: " ومن أوصاف الكلمة أن تكون مَبْنِيَّة من حركات خفيفة ليخف النطق بها ... ولهذا إذا توالىٰ حركتان في كلمة واحدة لم تستثقل وبخلاف ذلك الحركات الثقيلة فإنه إذا توالىٰ منها حركتان في كلمة واحدة استثقلت " . (١)

تلك هي أهم الأشياء المتعلقة بالقاعدة البلاغية فيما يخص تنافر الحروف وفصاحة اللفظة المفردة، والناظر إلىٰ بلاغة النظم العالي يَبِيْنُ له أن هذه القاعدة ليست مطردة في كل جزئياتها ، حيث إن هناك من الكلمات ما كانت قريبة المخرج، أو بعيدة المخرج، أو طال عدد حروفها عن المعتاد، أو توالت فيها الحركات الثقيلة، ومع ذلك لم تفارق دائرة الفصاحة قيد أنملة.

وهذا كله لا يكتمل إلا بمعرفة فصاحة اللفظ في التأليف دون الإفراد ، فالتأليف يؤدي إلىٰ السياق، والسياق يجود لك بأشياء كثيرة تظهر مدىٰ فصاحة الكلمة وتأثيرها، وهذا يشكل وعيًا جماليًا بالكملة في نطقها وفي استعمالها، ومِنْ ثَمَّ ترىٰ جمال الكلمة قائمًا علىٰ معايير الانسجام والتلاحم الدقيق في المعنىٰ والتركيب والتناسب بينهما مع مراعاة الحالة النفسية ، وعليه قد تكون الكلمة متقاربة المخارج، ولكنها في التركيب تستدعيك فلا يُؤخذُ غَيرُها، فتمد لك الآفاق في التصور ، وتجري من الإيقاع مجرىٰ التأثير المتصاعد، ويتجلىٰ ذلك واضحًا في كلمة (عسعس) الواردة في قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ [سورة التكوير:١٧-١٨]، حيث إن تقارب مخارج (عسعس) في ذاتها لم يحل دون استعمالها في تركيب تأليفي يشعر ببديع التصوير وعظمة التأثير، فالظلام يطول فيلقي بثقله علىٰ الإنسان فيرسي فيه همومًا وخيالات شتىٰ، فجاءت

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ضياء الدين بن الأثير ١/ ١٩٣ تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة العصرية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٤٢٠هـ .

كلمة (تنفس) لتخرجه من حالته الكئيبة وتبعث فيه شيئًا من الراحة والطمأنينة. (١)

وليست كلمة (عسعس) هي الوحيدة في هذا المضمار، بل هناك الكثير غيرها مما اشتملت علىٰ حروف متقاربة وكان التقارب فيها سببًا في الإبانة عن المراد منها داخل السياق، من ذلك كلمة (فيسحتكم) الواردة علىٰ لسان سيدنا موسىٰ ـ عليه السلام ـ موجهًا كلامه إلىٰ سحرة فرعون قائلاً: ﴿وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ [طه من الآية ٦١].

ومعنىٰ (يسحتكم) أي: يستأصلكم بسبب افترائكم الكذب علىٰ الله (٢) والمتلقي لهذه الكلمة يجد أنها احتوت علىٰ أربعة من حروف الهمس (٣) المتتابعة، وهي : (السين والحاء والتاء والكاف) التي تتوافق مع عدم القدرة من المعذب علىٰ إصدار أي صوت يستطيع من خلاله أن ينفس به عن ألمه وشدة عذابه، وانظر إلىٰ بلاغة حرف الميم في ختام الكلمة ـ الذي تنطبق عند خروجه الشفتان ـ وكأن هذا المعذب قد انتهىٰ به الحال إلىٰ السكوت بعد الهمس، وهذا من أدق اختيار الألفاظ ودلالتها.(٤)

ومن التقارب بين الحروف الذي لا يخل بفصاحة الكلمة اجتماع الحاء مع الهاء

---

(١) في جمالية الكلمة دراسة جمالية بلاغية ونقدية د/ حسين جمعة ص ٤٣ بتصرف ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ٢٠٠٢م.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود ٦/ ٢٥ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

(٣) الهمس ضد الجهر ، وهو انطلاق النفس عند النطق بالحرف الضعيف ، وذلك لضعف الاعتماد علىٰ مخرجه، وحروف الهمس عشرة مجموعة في قولهم : سكت فحثه شخص . دراسات في فقه اللغة د/ صبحي إبراهيم الصالح ص ٢٨١، دار العلم للملايين ط الأولىٰ ١٣٧٩هـ ١٩٦٠.

(٤) ينظر: جماليات الموسيقىٰ في النص القرآني د/ كمال أحمد غنيم ، رائد الداية، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية بغزة ص ٣٣ ـ المجلد العشرون ـ العدد الثاني ٢٠١٢م.

في كلمة واحدة دون أن يكون لها من العيب أدنىٰ نصيب، وذلك بين في قوله تعالىٰ : ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق ٤٠] ولعل سياق الكلام هو ما دعا إلىٰ اقتران الحاء والهاء هنا ، حيث إن الأمر بالتسبيح في جوف الليل وعقب الصلوات فيه شيء من الشدة والثقل علىٰ النفس ، خاصة في بداية الأمر ، وهذه الشدة وذلك الثقل من الممكن أن يحاكيهما اجتماع الحاء والهاء في كلمة (فَسَبِّحْهُ) دون أن يكون بين الحرفين فاصل بينهما ، ولكنك تجد أن هذا التقارب في الذكر الحكيم، لم يكن عائقًا أمام فصاحة الكلمة وسلامة النطق بها .

ومثل ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [يس ٦٠] حيث تقاربت الهمزة والعين والهاء في المخرج دون أن يكون هذا التقارب سببًا في عدم فصاحتها، أو في تنافر حروفها، وانظر ـ رعاك الله ـ إلىٰ هذه الأحرف المتقاربة ؛ لترىٰ أنها تطوي بداخلها ثقل العهد الذي أخذه الله علىٰ بني آدم ـ من عدم عبادة الشيطان ، مع عبادته سبحانه دون سواه ـ وثقل الوفاء به منهم ، ومن ثم جاء بعده قوله ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ (٦٢ يس) بما يؤكد علىٰ ثقل العهد عليهم وثقل الوفاء به

كانت هذه بعض الأمثلة من النظم العالي رداً علىٰ القول بأن تقارب الحروف في المخرج يكون سببًا من أسباب تنافرها في الكلمة المفردة.

وإذا كان البعض قد ذهب إلىٰ أن تباعد مخارج حروف الكلمة يؤدي إلىٰ الثقل والتنافر وصعوبة النطق بها. (١)

فليس الأمر كذلك ـ علىٰ كل مهيع ـ ؛ لأن تباعد مخارج الحروف ليس وحده السبب في هذا التنافر الذي اعتلىٰ متن الكلمة، ومن ثم أدىٰ إلىٰ ثقل النطق بها، وإنما يكون كذلك إذا اجتمع مع التباعد صفة أخرىٰ، وهي عدم ترتيب المخارج المتباعدة، ولا أدل علىٰ صدق ذلك من نظر القارئ في كلمة (ألم) الواردة في قوله

(١) ينظر: النكت في إعجاز القرآن للرماني ٩٦ .

تعالىٰ في أول سورة الفيل : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل ١] التي تباعدت مخارج حروفها ، ومع ذلك لم تثقل علىٰ اللسان ، وذلك بأن هذه الكلمة جمعت مخارج الكلام الثلاثة مرتبة من الداخل إلىٰ الخارج، فالهمزة تخرج من أقصىٰ الحلق واللام من أدنىٰ حافتي اللسان، والميم من الشفتين. (١) وكأن الحق سبحانه بجمعه بين هذه الحروف المتباعدة، يريد أن يجمع بين حواس المتلقي المختلفة، مثل السمع والبصر والإدراك الداخلي؛ ليكون علىٰ أهبة الاستعداد لاستحضار هذا المشهد العجيب ـ وهو إهلاك أصحاب الفيل ـ أمام ناظريه ؛ ليرىٰ بيان قدرة الله فيهم كيف كانت ، وكيف آلت بهم إلىٰ العصف المأكول ، ومن ثَمّ كان الغرض الرئيس من الاستفهام هنا هو تنبيه المتلقي وإيقاظ حواسه ، وعليه فكل ما يثير التنبه عنده مطلوب في هذا الكلام .

وأنىٰ يكون التباعد بين حروف الكلمة سببًا في ثقل النطق بها والله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل ٢٠] حيث إن حروف (علم) متباعدة المخارج ما بين الحلق وحافتي اللسان والشفتين ـ كما ترىٰ ـ ولا يتأتىٰ الثقل لها من أي واد تريده. ولعل الجمع بين الحروف المتباعد هنا يحاكي إحاطة علم الله بالجزئيات والكليات التي تعتري أحوال البشر، تمامًا كما أحاطت حروف (علم) بمخارج النطق الثلاث ، وهذا كله يتلائم مع دلالة (العلم) علىٰ اليقين، ومن ثم كانت دلالة اليقين وتلاؤمها مع الإحاطة في مادة (العلم) ملازمة لوجه ترتيب الحروف من (العين واللام والميم) في كل علم ، وأعلاها ما كان في علم الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ .

وعلىٰ هذا يمكن القول بأن قرب المخارج أو بعدها لا يصلح ضابطًا ـ منفرداً ـ يعول عليه في ضبط التنافر الموجود في الكلمة، وذلك لعدم اطراده في كل المواضع،

(١) التأليف الصوتي في القرآن الكريم ـ هارون نوح معابدة ص ٣٣٣ بتصرف ـ بحث منشور في دراسات علوم الشريعة والقانون ـ ملحق ١ لسنة ٢٠١٦ ـ عمادة البحث العلمي ـ الجامعة الأردنية .

بل ما ينبغي أن يعول عليه في ذلك إنما هو الذوق، فما عده الذوق السليم ثقيلاً متعثر النطق فهو متنافر، وما لا فلا ، سواء أكان اللفظ متقارب الحروف أم متباعدها. (١)

وهذا الذوق الحاكم إنما أقام حكومته تلك علىٰ موقع الكلمة من السياق، وبيان مدىٰ ملائمتها لما وضعت من أجله، وهذا ما قرره إمام البلاغيين ـ الشيخ عبد القاهر ـ حين قال : " وهل يقع في وهم ـ وإن جهد ـ أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلىٰ مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية، أو أن تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن، ومما يكد اللسان أبعد؟ وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة، إلا ويعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها". (٢)

ويدلل أحدهم علىٰ صدق كلام الشيخ في ضرورة التجانس التام بين الكلمة بحروفها والسياق الواردة فيه ـ بغض النظر عن تنافر الحروف وثقل النطق بها ـ بقول تأبط شراً : (من الطويل)

قَليلِ اِدِّخارِ الزادِ إِلّا تَعِلَّةً ∴ وَقَد نَشَزَ الشُرسوفُ وَالتَصَقَ المِعَىٰ (٣)

فيقول:

لاشك أن في قوله : (نَشَزَ الشُرسوفُ) من التنافر والثقل ما لا يخفىٰ ، ولكن: لم

(١) حاشية الدسوقي علىٰ مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني ص ٢٧٤ بتصرف تح/ عبد الحميد هنداوي ـ المكتبة العصرية ـ بيروت .

(٢) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٤٤ تح/ محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ دار المدني ـ جدة ـ ط الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

(٣) ديوان تأبط شراً ص ٣٤ تح/ عبد الرحمن المصطاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م ـ التعلة: ما يتعلل به ، والنشوز الشخوص، والشرشوف : مقاطع الأضلاع التي تشرف علىٰ البطن، والمعىٰ: البطن، شرح ديوان الحماسة للتبريزي ص ١٩٠ ـ دار القلم ـ بيروت.

لجأ تأبط شراً إلىٰ هذا التنافز ؟ ألأنه بدوي متوحش عديم الفصاحة ؟ الجواب بلا شك لا، بل لجأ إلىٰ ذلك لأنه يصف نفسه ـ وهو من الشعراء الصعاليك ـ بالجوع وقلة الطعام، حتىٰ أصابه الهزال فبرزت رؤوس ضلوعه في صدره شاخصة للعيان، ومن ثم أفكان يستطيع أن يؤدي صورته هذه أداء حيًا بغير هذا التنافر؟ والإجابة بلا تردد (لا) ، ومن هنا فلابد من النظر إلىٰ الصلة التي تربط بين الحالة العاطفية للمتكلم، وبين الصورة التي يريد نقلها للمخاطب ، وعليه فقد تقتضي الفصاحة من المتكلم أن يأتي في كلامه بهذا التنافر، إذا كانت الصورة التي يريد نقلها متنافرة. (١)

وعليه فينبغي أن يلاحظ أن استعمال مثل هذا القياس يحتاج إلىٰ وعي وذوق، لأن هناك من الكلمات ما يبدو ثقلها علىٰ اللسان واضحًا، ولكن ثقلها هذا من أهم مظاهر فصاحتها، حيث إن هذا الثقل يصور معناها أتم التصوير، انظر ـ مثلاً ـ إلىٰ كلمة (اثاقلتم) الواردة في قوله تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة] تجد فيها قدرا من الثقل الفصيح، لأنه يصف تقاعسهم وتثاقلهم وخلودهم إلىٰ الأرض، واستشعارهم مشقة الجهاد، وعزوف أرواحهم عنه، وقد دعوا إليه في عام العسرة، وتأمل كلمة أنلزمكموها) في مقالة سيدنا نوح لقومه ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ﴾ [هود ٢٨] وما فيها من صعوبة في النطق تحكي صعوبة الإلزام بالآيات وهم لها

(١) الشعر الجاهلي ـ منهج في دراسته وتقويمه د/ محمد النويهي ١/ ٤٦ ، ٤٧ بتصرف، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ، وينظر : المآخذ علىٰ فصاحة الشعر إلىٰ نهاية القرن الرابع د/ عامر بن عبد الله الثبيتي ص ٤١ ، الجامعة الإسلامية المدينة المنورة ، ط الأولىٰ ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م .

كارهون، وانظر إلىٰ كلمة (فعميت) وما فيها من الإدغام والتشديد وكيف تصفان معنىٰ التعمية والإلباس، ومِنْ ثَمَّ لا تجد في كلمة (اطلخم) في قول أبي تمام : (من البسيط)

قَدْ قُلْتُ لمَّا اطلَخَمَّ الأَمْرُ وانْبَعَثَتْ ∴ عَشواءُ تَالِيةً غُبْساً دَهارِيسَا (١)

مخالفة للفصيح؛ لأن ثقلها وتداخل حروفها يحيكان الشدة والاختلاط حين ينبهم الأمر، وتنبعث النوائب العشواء. (٢)

ومن هنا يمكن القول بأنه قبل الحكم علىٰ أي كلمة بالثقل أو التنافر لابد من النظر إلىٰ معناها في نفسها، وإلىٰ وضعها داخل سياقها، فإذا تنافرت في نفسها ، ونفرت من سياقها لغير غرض بلاغي فتلك هي الكلمة المعيبة، خاصة إذا ما كانت غريبة أو شاذة أو نادرة القياس. (٣)

وإذا كان ابن سنان قد جعل من شروط فصاحة الكلمة أن تكون معتدلة غير كثيرة الحروف، لأنها متىٰ زادت عن الأمثلة المعتادة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة، وجعل من ذلك كلمتي (أذربيجان) و(استسماجها) في قول أبي تمام:

فلأذربيجانَ اخْتِيَالٌ بَعْدَمَا ∴ كانتْ معَرَّسَ عَبْرةٍ وَنَكَالِ

سمَجَتْ وَنَبَّهْنَا علىٰ اسْتِسْمَاجِها ∴ ما حَوْلَهَا مِنْ نَضْرةٍ وجَمَالِ

فعنده أن (أذربيجان) كلمة رديئة لطولها وكثرة حروفها، وكذلك كلمة (استسماجها) في البيت الثاني رديئة لكثرة الحروف وخروجها عن المعتاد في الألفاظ إلىٰ الشاذ النادر، وجعل من ذلك كلمة (سويداواتها) في قول أبي الطيب:

---

(١) ديوان أبي تمام ص ١٧١.

(٢) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسىٰ ص ٦٣ ، ٦٤ بتصرف.

(٣) المآخذ علىٰ فصاحة الشعر ٤٣ ، ٤٤ بتصرف.

إنّ الكِـــرامَ بِـــلا كِـــرامٍ مِـــنْهُمُ ∴ مِثْـــلُ القُلـــوبِ بـــلا سُـــوَيداواتِهَا

لكونها طويلة جداً، ومن ثم فلا يعدها فصيحة. (١)

فإن رأي ابن سنان السابق لا يكاد يتفق مع مظاهر التهذيب في ألفاظ القرآن الكريم، حيث ترىٰ ما يختل فيه شرط الفصاحة بالطول من الكلمات يأتي عذبًا جميلاً فيه، لبناء النظم الكريم تلك الكلمات علىٰ أسلوب ونسق بديع يجنبها ثقل التطويل ، ففي القرآن الكريم من الكلمات ما بلغت حروف إحداها عشرة أحرف ـ وإن جعلت المضعف فيها بحرفين فهي أحد عشر حرفًا ـ كما في كلمة (ليستخلفنهم) الواردة في قوله تعالىٰ: قوله تعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [سورة النور:٥٥]، ومثلها ثقيل علىٰ اللسان ناب في السمع، أما هي فقد وقعت موقعًا عذبًا لا ثقل فيه ولا نبو؛ وذلك لأن مخارج حروفها فيما بينها متباعدة، كما أن نظم حركاتها ساحر، إذ تتكون من أربعة مقاطع، ينتهي كل مقطع فيها بسكون يسكن معه النفس، ومن ثم تخرج الكلمة متجزئة كأنها أربع كلمات لا كلمة واحدة،(٢)

وإذا أمعنت النظر إلىٰ تلك الكلمة الطويلة الحروف تجدها تدل بمعناها علىٰ عدة معان تكتنفها دلالة ألفاظها من وراء طولها ، حيث إن هذا الاستخلاف الذي وعده الله الذين آمنوا كائن بعدة أشياء لا بشيء واحد ، فليس هو استخلاف الحكم والقبض علىٰ زمام الأمور فقط، وإنما هو استخلاف يُعلي من شرع الله وينهض به

(١) سر الفصاحة ص ٨٨ بتصرف.

(٢) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د/ عبد العظيم المطعني ١/ ٢٥١ بتصرف ـ مكتبة وهبة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

علىٰ أكمل وجه، واستخلاف يتحقق به العدل بين الناس مما يترتب عليه الإصلاح والفلاح، ودحض الظلم والفساد ، ومن ثم عمارة الأرض ونشر الخير بين ربوعها ، فلتعدد مراحل الاستخلاف في الأرض وطولها تعددت مقاطع الكلمة وطالت للدلالة علىٰ ذلك.

وهناك من كلمات النظم العالي ما بلغت حروفها تسعة أحرف، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٣٧]، حيث جاءت كلمة (فسيكفيكهم) في ثلاثة مقاطع هي (فسيكـ/ فيـ/ كهم) وقد تكرر فيها الياء والكاف، وتوسط الكافين مَدٌّ هو سر الفصاحة في الكلمة كلها؛ لأنه خفف اجتماع المثلين، كما فصل بين اليائين بالكاف الأولىٰ والفاء، وانتهىٰ كل مقطع من مقاطعها بالسكون كذلك، فنزلت منزلة ثلاث كلمات ـ كما ترىٰ ـ وعَذُب النطق بها رغم طولها . (١)

وليس هناك ما يمنع من أن يكون طول الكلمة في قوله: ﴿ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ ﴾ دالاً علىٰ طول مدة الكفاية من الحق سبحانه لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أو تنوع طرق الكفاية وتعددها وكثرة أساليبها ، أو أن يكون ناتجًا عن كثرة المُعادين له ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ الواقفين في طريق دعوته الذين تولىٰ الله أمرهم، وردّ كيدهم في نحرهم، وأماتهم بغيظ قلوبهم ، ومن ثـمّ كان طول الكلمة مشيراً إلىٰ هذه المعاني، واختلاف أساليبها وتعدد أوجهها ، ومن هنا حسنت في طولها ولم تقبح .

ولا أدل علىٰ أن طول الكلمة لا يكون دائمًا عائقًا أمام فصاحتها، ما تراه في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر ٢٢] حيث إن كلمة (فأسقيناكموه) أحد عشر حرفًا ، ومع ذلك ينطقها

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د/ عبد العظيم المطعني ١/ ٢٥١ بتصرف ـ

القارئ لكتاب الله تعالىٰ دون تلعثم أو توقف أو تلكؤ ، بل بسلاسة وسهولة ويسر، ولعل هذا الثوب الطويل الذي اكتسته هذه الكلمة يتناسب تناسبًا متوازيًا مع طول المدة الزمنية المستغرقة في إيجاد الماء، حيث إن سقي الماء في الدنيا يمرُّ بمراحل عدة حتىٰ يصل إلىٰ المنتفعين به ، بدءاً من تبخر الماء إلىٰ طبقات الجو العليا ، ثم حمل السحاب له مدة يقدرها الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ثم إفراغ هذا السحاب ماءه ليسيل من رؤوس الجبال إلىٰ السهول والوديان ، ومنها إلىٰ المنتفعين به عن طريق توصيله إليهم بآلات وأدوات معينة .

أو أن حفر الآبار وطلب الماء يأتي علىٰ مراحل وليس علىٰ مرحلة واحدة ، ومن ثَمّ تطول مدة الحفر حتىٰ ينبع الماء أمام الطالبين له ، ومن هنا كان طول الكلمة دالاً علىٰ طول المدة الزمنية المبذولة في إيجاد هذا الماء والانتفاع به ... هذا بالنسبة لأحوال الدنيا القائمة علىٰ التعب والنصب في طلب الأشياء ، ولكنك لا تجد مثل هذا الطول عندما تحدث الحق ـ جلَّ في علاه ـ عن أهل الجنة فقال : ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٢١ الإنسان) ؛ لأن السقي هنا مختلف عن السقي في الدنيا ؛ لكونه بسهولة ويُسر دون كدٍّ أو تعب ، وليس فيه مراحل تكوين وإيجاد ، ومن ثمّ قصر طول الكلمة هنا عن موضع سورة الحجر .وعليه إذا ارتبط طول الكلمة بالمعنىٰ المراد تصويره، أو الهيئة المراد بيانها، كان ذلك سببًا من أسباب فصاحتها وجميل بلاغتها.

وإذا كان الشيخ ابن الأثير قد جعل من شروط فصاحة الكلمة أن تكون مبنية من حركات خفيفة ليخف النطق بها، وعنده توالىٰ حركتين خفيفتين في كلمة واحدة غير مستثقل، بخلاف الحركات الثقيلة ، فإنه إذا توالىٰ منها حركتان في كلمة استثقلت وذلك لما يجده الناطق فيها من تكلف العناء وتجشم المشقة. (١)

فإن الناظر في ألفاظ الذكر الحكيم يجد أن كثيراً منها يرُدُّ علىٰ ما ذكره ابن

(١) ينظر: المثل السائر لابن الأثير ١/ ١٩٣.

الأثير، وأن شرطه هذا غير ملزم البتة، كيف وقد اجتمعت الضمتان ـ والضمة أثقل الحركات ـ علىٰ كثير من ألفاظ القرآن دون أن يجد الناطق بها من تكلف العناء وتجشم المشقة شيئًا يذكر، وذلك كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر ٣٦] وكيف أن الضمتين اجتمعتا علىٰ كلمة (النذر) فجاءت سلاستها علىٰ عكس ما قعده ابن الأثير، ولم تستقل أو تستكره أو نفر منها الذوق السليم، وما سمعنا بأن كبيراً أو صغيراً أو مُعلِّمًا أو مُتَعَلِّمًا قد شعر بهذا الثقل الذي ادعاه صاحب المثل السائر، ولا أدري كيف جعل الضمتين المتواليتين سببًا لثقل النطق بالكلمة، وقد صافحت عيناه جملة من الكلمات في الذكر الحكيم توالت فيها الضمتان، من ذلك قوله تعالىٰ ـ في وحيه إلىٰ النحل ـ : ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل ٦٩] ، وقوله في يوسف : ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [من الآية ٣٥] ، وقوله عن سيدنا نوح : ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [سورة القمر:١٣]،وقوله في وصف أهل الجنة:: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الصافات:٤٤].

أفترىٰ ـ أيها القاري الكريم ـ في كل من : (سُبُلَ) و(ذُلُلاً) و(دُبُرٍ) و(دُسُرٍ) و(سُرُرٍ) ثقلاً يكد معه اللسان أو يتكلف تسهيله صاحب البيان؟

وإذا كان الشيخ قد استثقل الضمتين المتواليتين في كلمة، فكيف به إذا قلَّبَتْ أنامله صفحات الذكر الكريم، ورأىٰ بنور عينيه ثلاث ضمات علىٰ كلمة واحدة ؟ وذلك كما في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [سورة المائدة:٣٢]، وقوله : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة ٢٥٣] وقوله :قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ [التكوير:١٠]، وقوله :

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة ٦١] وقوله في وصف الجنة : ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد ٣٥] وقوله : ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه ١٢٦] .

وليت الأمر وقف بحركات الضم المتوالية عند الثلاث فقط، بل إن الذكر الحكيم قد أورد من الكلمات ما اشتملت علىٰ أربع ضمات متواليات، وذلك كما في قوله : ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف:١٠١] ـ وغيرها كثير ـ وقوله عن أصحاب النار : ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة ٥٦] دون أن يكون لهذه الضمات الأربع ثقل أو استكراه في السمع؛ لأن تتابع الضمات في كلمة (رُسُلُهُم) يحاكي لنا تتابع الرسل برسالاتهم علىٰ أهل هذه القرىٰ التي بينها الحق بقوله : ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الأعراف١٠١) ويشير من طرف خفي إلىٰ ثقل هذا الأمر علىٰ نفوسهم وضيقهم به ، ومن ثمَّ كفروا وكذبوا فطبع الله علىٰ قلوبهم ، كما أن تتابع الضمات في قوله ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يشير إلىٰ ما فيه هؤلاء من صعوبة العذاب التي ألمت بهم وتتابعه عليهم ، حيث إن النُّزُل هنا ليس نُزُلَ راحة واستقرار، وإنما مهانة واحتقار.

أليس ما مضىٰ يُعدُّ دليلاً دامغـًا علىٰ أن القول بتوالي حركتين ثقيلتين علىٰ الكلمة الواحدة يجعلها ثقيلة علىٰ اللسان = قول جانبه الصواب وتنكب طريق الصحة المطلقة، وأنىٰ يكون في مثل هذه الكلمات ثقل في السمع أو كَدٌّ في النطق ؟ وفيها من السلاسة والعذوبة ما يجعلها تلذ في الآذان وتستقر في الأذهان وينعم بها الجنان.

وكما تتابعت في النظم العالي الضمات تتابعت فيه كذلك الكسرات ، ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف ٥٩] ومن المعلوم أن الكسرة من الحركات الثقيلة ، ومع ثقلها هذا سهل بها اللسان هنا، وكان لها في النظم العالي شأن عجيب قلما يوجد في غيره، حيث كان في توالي هذه الكسرات الثلاث إشارة إلىٰ توالي نزول أدوات الإهلاك بهؤلاء ـ إن حانت ساعة إهلاكهم ـ حتىٰ تستأصل شأفتهم وتكسر شوكتهم فلا تبقي منهم أحداً.

وليس توالي الكسرات الثلاث في كلمة (لِمَهْلِكِهِم) وحدها، بل إن الحق سبحانه لما أخبر عن تمني المجرم أن يفدي نفسه يوم القيامة بأخص خاصته قال : قوله تعالىٰ: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾ [سورة المعارج:١١-١٢]راجع كلمة (يَوْمِئِذٍ) لترىٰ أن فيها ثلاث كسرات متواليات، ومع ذلك لم يقدح أحد في ملائمتها لسياقها وفصاحتها في مكانها، ومثل ذلك تراه في آية هود التي يقول الحق فيها: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة هود:٦٦

فهل بعد ذلك كله يحق لنا أن نضع شرط ابن الأثير السابق ضمن قائمة شروط فصاحة اللفظة المفردة، أم نجعل التعويل في مثل هذا علىٰ الذوق السليم، فما رآه حسنًا فهو حسن، وما رآه قبيحًا فهو قبيح ؟

المبحث الثاني

الغــرابـة معنـاهـا وأسـبابها

الشرط الثاني الذي قرره علماء البلاغة لتكون الكلمة علىٰ درج الفصاحة وفي قمة البيان، أن تكون خالية من الغرابة.

والغرابة هي: كون الكلمة غير ظاهرة الدلالة علىٰ المعنىٰ المراد فتحتاج في معرفتها إلىٰ النظر والتنقيب عنها في كتب اللغة المبسوطة.

والغرابة عندهم لها سببان :

الأول: أن تكون الكلمة نادرة الاستعمال عند العرب.

الثاني: أن يحتاج التوصل إلىٰ المراد منها إلىٰ تخريج بعيد يؤدي إلىٰ فهم المراد.

وشهرت أمثلة لهذه الغرابة في كتب القوم تناقلها اللاحق عن السابق، حتىٰ كاد يحفظها شداة طلاب العلم عن ظهر قلب، من ذلك قول عيسىٰ بن عمرو النحوي لما سقط عن حماره واجتمع الناس عليه: (مَالكُمْ تَكَأْكَأْتُم عليَّ كَتَكَأْكُئكُم علىٰ ذي جِنّة ؟ افْرَنْقِعُوا عنّي) أي: مالكم اجتمعتم ... تنحوا عني ، وهذا مثال للكلمة النادرة الاستعمال، ومن ذلك : كلمة (البُعاق) بمعنىٰ المطر، و(الهِرْمَاس) للأسد، و(الابْتَكَاش) للكذب ... الخ .

أما **الكلمة الغريبة التي تحتاج إلى تخريج بعيد**، فقد ضربوا لها مثالاً بكلمة (مسرجا) في قول العجاج : (من الرجز)

أيــامَ أَبــدَت واضــحًا مُفَلَّجَــا ∴ أَغَــرَّ بَرّاقــًا وَطَرْفَــًا أَدْعَجَــا

وَمُقْلـــةً وحاجِبَـــًا مُزَجَّجَـــا ∴ وفَاحِمَـــًا ومَرْسِـــنًا مُسَـــرَّجَا

حيث اختلف في تخريج كلمة (مسرجا) فقيل: هي كلمة يصف بها الأنف منسوبة إلىٰ حداد يسمىٰ سريجًا، ومِنْ ثَمَّ فهو يريد تشبيه الأنف في الدقة والاستواء

بالسيف الذي يصنعه ذلك الحداد، وقيل هي من السراج، وعليه فهو يريد تشبيه الأنف في بريقه ولمعانه بالسراج (١) .

تلك هي القاعدة التي اعتمدها البلاغيون في التحقق من غرابة اللفظ المفرد، وما يراد قوله هنا : هو أن هذه القاعدة ربما اعتراها شيء من القصور إذا ما جعلت وجهًا لوجه مع ما ورد في لغة البيان العالي من مفردات أحاط بها شيء من الغرابة حتىٰ علىٰ الصحابة أنفسهم، ومع ذلك لم يقدح أحد في فصاحتها، أو بلوغها ذروة البيان وقمة البلاغة.

فإذا كانت الغرابة عندهم في شقها الأول قائمة علىٰ قلة الاستعمال أو الاحتياج إلىٰ الكشف عنها في المعاجم اللغوية، فماذا نقول فيما روي عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه لما سئل عن معنىٰ (الأب) في قوله تعالىٰ : ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس ٣١]فقال: "أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به ... والأب : هو المرعىٰ ". (٢)

وها هو الفاروق ـ رضي الله عنه ـ لا يعرف معنىٰ (التخوف) الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل من الآية ٤٧] حتىٰ كان ذات مرة علىٰ المنبر فقال: ما تقولون في هذه الآية ؟ فسكتوا ، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف : التنقص. (٣)

---

(١) ينظر: الإيضاح للخطيب القزويني ١/ ٢٣ ، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ١/ ٦١ .

(٢) تفسير أبي السعود ٩/ ١١٢.

(٣) التفسير الكبير للرازي ٢٠/ ٢١٣ بتصرف ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط الثالثة ١٤٢٠هـ.

ولم يقف الأمر عند الصديق والفاروق في عدم معرفة الغريب من ألفاظ الذكر الحكيم، بل إن حبر الأمة وترجمان القرآن ـ عبد الله بن عباس يقول : ما عرفت معنىٰ (فاطر) في قوله تعالىٰ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر ١] حتىٰ اختصم إليَّ أعرابيان في بئرٍ فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُها، أي : ابتدأتها وابتدعتها. (١)

وها هو ـ رضي الله عنه ـ يقول ـ مرة أخرىٰ ـ ما كانت أدري معنىٰ (يحور) في قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ [[الانشقاق ١٤] حتىٰ سمعت أعرابية تدعو بُنية لها قائلة : حُوْرِي إليَّ، فرأيتها رجعت. (٢)

ولاشك أن غريب ألفاظ القرآن لم يقف عند هذا الحد ، بل إنك لتجد من الألفاظ ما يستوقفك المراد منه، ومن ثم تبحث له عن معنىٰ في كتب اللغة أو التفسير، من ذلك قوله تعالىٰ في سورة الإنسان علىٰ لسان الصالحين من عباده : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان ١٠] ومعنىٰ (قمطريرا) : شديداً أو طويلاً. (٣)

ولعل البيان العالي قد آثر هذا اللفظ الغريب (قمطريرا) دون شديداً أو طويلاً؛ للإيحاء بمدىٰ ثقله علىٰ الكافرين وشدته علىٰ نفوسهم؛ حيث يسبقه الخوف والعبوس والكراهة في النفوس ومن ثمَّ كان قَمْطَرِيراً جامعًا بين الشدة والطول،ولا يبعد أن تكون هذه الشدة التي يوحي بها هذا اللفظ قد جاءت من مجاورة الطاء

(١) الكشاف للزمخشري ٣/ ٥٩٥ بتصرف ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط الثالثة ١٤٠٧هـ .

(٢) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٧٣ تح / أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ط الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م بتصرف.

(٣) ينظر: روح المعاني للآلوسي ١٥/ ١٧٢ تح/ علي عبد الباري عطية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط الأولىٰ ١٤١٥هـ.

للميم الساكنة والرائين، حيث إنك لو فتشت عن مثيل له في النظم الكريم لما رأيت له مثيلاً أو قرينًا يعبر عن ثقل يوم القيامة وشدته علىٰ نفوس المكذبين مثل تعبير هذا اللفظ. (١)

وتعبير الكلمة الغريبة عن دقيق ما يراد منها شيء محمود في النظم البليغ ، ومما يؤيد ذلك قول الباقلاني في هذا الشأن :

" والكلام الغريب واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام قد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها ". (٢)

وليست كلمة (قمطريرا) وحيدة في مضمارها، أو فريدة في بابها ، بل هناك من ألفاظ الذكر الحكيم ما كانت غرابة لفظها سببًا لغرابة معناها.

وتحمل في بنائها الصوتي آثار الحزونة والصعوبة التنغيمية بغية إعانتها علىٰ الوفاء بحق معناها وتصويره أكمل تصوير، فيكون منها عون للمتلقي علىٰ إدراك المعنىٰ الغريب الذي لا تأنس النفس بوقوعه وصحبته، وذلك بَيِّن في اصطفاء الحق سبحانه كلمة (ضيزي) الواردة في قوله:﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم ٢٢].(٣)

واختيار كلمة (ضيزىٰ) في هذا الموضع دون الكلمات التي تؤدي معناها من نحو: جائرة أو ظالمة، له نكتتان، إحداهما: معنوية للإشعار بقباحة التعامل مع الرب الكريم بقسمة جائرة ظالمة ، تلك التي يختار فيها المشركون لأنفسهم

(١) ينظر: من بلاغة القرآن د / أحمد أحمد بدوي ص ٥٢ ـ نهضة مصر للطباعة والنشر ٢٠٠٥ ـ وجمالية المفردة القرآنية ـ أحمد ياسوف ٢٢٩ ـ دار المكتبي ـ دمشق ـ ط/ الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٧٧ تح/ السيد أحمد صقر ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط الخامسة ١٩٩٧م.

(٣) العزف علىٰ أنوار الذكر ـ د/ محمود توفيق ١٦٧ ـ شبين الكوم ـ ط الأولىٰ ١٤٢٤هـ.

الذكور ويخصونه سبحانه بالإناث، وتلك قسمة غريبة، فدل عليها بأغرب لفظ ورد في الذكر الحكيم، والنكتة اللفظية: هي مراعاة رؤوس الآي في الآيات التي قبلها والتي بعدها ؛ لبناء ما قبلها وما بعدها علىٰ حرف اللين المقصور. (١)

ومن هنا ندرك أن هذه المفردة لم تكن غريبة في لفظها فقط، وإنما في المعنىٰ المراد بيانه كذلك، وما جاءت علىٰ هيأتها هذه إلا لتؤكد ما قاله الجاحظ (٢) : (**إنما الألفاظ على أقدار المعاني**) . (٣)

وقد يترك البيان العالي المفردة الأكثر شيوعًا واستعمالاً، ويأتي بأخرىٰ ـ قليلة الاستعمال ـ لإثبات معنىٰ قصد إليه، من ذلك قوله تعالىٰ في وصف حال المعرضين عن داعي الحق جل في علاه : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [سورة المدثر:٤٩-٥١]، والمفردة قليلة الاستعمال هنا هي: القسورة، والمراد بها: الأسد أو الصياد. (٤)

وغرابة اللفظ ـ قسورة ـ هنا مناسب لغرابة الوقف الذي اتخذه أولئك الضالون المكذبون تجاه داعي الحق ورسول الصدق ﷺ حيث بالغوا في معارضة الدعوة والنفور منها ومن صاحبها، واتخذوا كل الوسائل لئلا يسمحوا لكلمة التوحيد أن تطرق آذانهم أو تسري إلىٰ وجدانهم ، تمامًا كما تنفر الحمر الوحشية إذا هاجمها

(١) البلاغة العربية ـ عبد الرحمن حبنكة الميداني ـ ٢/ ٤٧٩ ـ دار القلم ـ دمشق ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

(٢) ينظر: الجرس الصوتي ـ دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن د/ ياسر علي عبد الخالدي ص ٤٥٦ بتصرف ـ كلية الأدب ـ جامعة القادسية ـ بابل ـ العدد ١٨ سنة ٢٠١٤م.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ١٨ ـ دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ـ لبنان ١٤٢٣هـ .

(٤) ينظر: روح المعاني للآلوسي ١٥/ ١٤٨.

الليث الغضنفر أو الأسد الهزبر ، فلا تراها إلا في سرعة مطلقة وفي غير اتجاه تهيم حتىٰ لا تقع فريسة سائغة لناب الليث أو سهم الصياد.

ومن الألفاظ الغريبة التي جاءت في البيان الغالي كلمة (أغطش) الواردة في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات ٢٩] وقد ذهب بعض من اعتنىٰ بتفسير غريب القرآن إلىٰ أن (أغطش) بمعنىٰ أظلم، وهما يدوران في مضمار المعنىٰ الواحد، والمعنىٰ: أظلم ليلها، أي جعله مظلمًا. (١)

ومن ثم فـ(أغطش) مساو من حيث الدلالة اللغوية لكلمة (أظلم) ولكن بالتأمل يبين لك أن (أغطش) يمتاز بدلالة أخرىٰ تستشف من وراء حدود اللغة، وهذه الدلالة يستقل بها الوزن وجرس الأحرف المكونة لها في تآلف تام، فالكلمة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت وعم فيه الركود، وتجلت في أنحائه مظاهر الوحشة ، ولذلك قل استعماله في لغة العرب، بينما كثر استعمال (أظلم) ولكنه علىٰ غرابته جاء في موضعه علىٰ أحسن ما يمكن أن يأتي عليه اللفظ، ولا يفيد تلك المعاني السابقة التعبير بالفعل (أظلم) ؛ لأنه تعبير عن السواد الحالك ليس إلا، ولست بحاجة ـ لفهم دلالات أغطش ـ إلىٰ وساطة لغة أو مراجعة قاموس وإنما هو إحساس ينبعث في نفسك من طبيعة الكلمة ووقع حروفها.(٢)

ومعلوم (أن أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه)(٣) كما يقولون.

---

(١) ينظر: كتاب الغريبين في القرآن والحديث لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي ٤/ ١٣٧٨ تح/ أحمد فريد المزيدي ـ مكتبة نزار مصطفىٰ الباز ـ السعودية ط الأولىٰ ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

(٢) من روائع القرآن ـ محمد سعيد البوطي ١٤٠ بتصرف ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م ، وينظر: الجرس الصوتي ـ دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن ص ٤٥٧.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٨٧.

وإذا ما طوينا صفحة النظر في كتاب الله تعالىٰ واشتماله علىٰ بعض الألفاظ الغريبة التي يدعو إليها السياق، ولا يقوم مقامها سواها من الألفاظ التي تجري معها في ميدان المعنىٰ العام = فما لنا بدٌّ من متابعة النظر في البيان النبوي بحثًا عن مثل ما سبق، تأكيداً علىٰ أن اللفظة الغريبة غير مخلة بالفصاحة في كل مواقعها ، وليس عيبًا أن يختار البليغ من الألفاظ الغريبة ما يدعو إليها السياق ويحتاجها الموقف؛ لأن بها من الدليل علىٰ المقصود ما ليس في سواها.

من ذلك ما أورده الإمام أحمد في مسنده من طريق سيدنا جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ حيث قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إِنَّ أَقْوَامًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا مُحِشُوا فِيهَا، فَيُنْطَلَقُ بِهِمْ إِلَىٰ نَهْرٍ فِي الْجَنَّةِ، يُقَالُ لَهُ: نَهْرُ الْحَيَاةِ، فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَمْثَالَ الثَّعَارِيرِ " (١) ، ومعنىٰ (مُحِشُوا) أي: احترقوا.

والكلمة محل الغرابة في هذا الحديث هي كلمة (الثَّعَارِيرِ) وبمراجعة كتب اللغة للوقوف علىٰ المعنىٰ المراد منها تبين أنها تحمل معنىٰ : القِثَّاء الصغير الذي ينمو سريعًا(٢) ، وقيل: هي رءوس الطَّرَاثِيْث، واحدتها : طِرْثُوثُ ، وهو نبات أبيض يؤكل، ينبسط علىٰ وجه الأرض كالفطر (٣) كأنه من جنس الكمأة. (٤)

إذاً الثعارير هي القثاء الصغير السريع النمو، أو الطراثيث البيض، هذان هما

(١) مسند الإمام أحمد ٢٣/ ٢٩٠ تح/ شعيب الأرناؤوط وآخرين ـ مؤسسة الرسالة ـ ط الأولىٰ ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ١٠/ ٣٢٠ ـ تح/ مجموعة من المحققين ، الناشر: دار الهداية.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الجزري (ت ٦٠٦هـ) ٣/ ١١٧، ١/ ٢١٢ تح/ طاهر أحمد الزاوي ـ محمود محمد الطناحي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

(٤) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٩/ ١٤٣ تح/ عبد الحميد هنداوي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

المعنيان اللذان يكتنفان دلالة هذه الكلمة، السرعة والبياض وبمراجعة النظر فيهما تدرك القدرة البيانية لأفصح العرب ﷺ وذلك حينما اصطفىٰ من الألفاظ ما يدل علىٰ المعنىٰ المقصود من أقصر طريق، حيث إن هؤلاء الخارجين من النار قد خرجوا منها ممتحشين، أي: محترقين، واحتراقهم فيها يضرب بلونهم إلىٰ السواد، فاصطفىٰ ﷺ لفظًا يدل علىٰ تحول هيئتهم إلىٰ البياض فكانت (الثعارير) ، ثم إنه ربما توهم البعض أن هذا التحول قد يستغرق وقتًا طويلاً حتىٰ يصلوا إلىٰ هذا المستوىٰ من الإشراق والوضاءة، فإذا به ﷺ يختار من الألفاظ ما يدفع هذا التوهم، وينبئ عن سرعة تحولهم إلىٰ اللون الأبيض، وذلك كائن بلفظ (الثعارير) أيضًا، هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ لما كان هذا التحول من الامتحاش إلىٰ البياض بسرعة أمراً غير معهود تقريبًا = جاء ﷺ بما يدل علىٰ هذا المعنىٰ بلفظ غريب غير معهود وفاءً بالمعنىٰ المراد مع القصد في اللفظ.

ومن ذلك ما ورد في سنن أبي داود عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن النبي ﷺ قال : " لا تَقتُلوا أوْلادَكم سِرًّا؛ فإنَّ الغَيْلَ يُدرِكُ الفارسَ فيُدَعثِرُه عن فَرَسِه. (١)

والغيل : هو لبن المرأة المرضع وهي حامل. (٢)

وما من شك في أن الكلمة الغريبة هنا هي قوله : (فيدعثره) وهي من الدَّعْثَرة التي بمعنىٰ: الهدم والكسر ، وقد دَعْثَر : الحوض وغيره : هدمه ، ودعثره: صرعه وكسره، والدَّعاثِر: ما تَهَدَّم من الحياض والجوابي إذا تكسر منها شيء فهو دُعْثُور.(٣)

(١) سنن أبي داود ٤/ ٩ تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت.

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور ٤/ ٢٨٧ ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط الثالثة ١٤١٤هـ .

(٣) تاج العروس ١١/ ٢٩٧.

وواضح أن الكلمة في سياق الحديث تؤدي معنىٰ السقوط والوقوع من علىٰ الفرس، ولكن عدل النبي ﷺ من قوله : إن الغيل يدرك الفارس فيوقعه أو فيسقطه إلىٰ (فيدعثره) لأنه أراد أن يعلمنا أن هذا السقوط ليس سقوطًا معتاداً ، أو وقوعًا مألوفًا لشخص جمح به فرسه، بحيث يستطيع بعده النهوض واستكمال نزاله، وربما غلبة خصمه ، بل أراد أن يقرر أن هذا سقوط يعقبه كسر وهلكة، ومِنْ ثَمَّ وسم صاحبه بالصريع، ومن هنا يعلم لماذا صدر النبي ﷺ حديثه بقوله : (لا تَقتُلوا أوْلادَكم سِرًّا).

وكأن النبي ﷺ أراد أن يبين إلىٰ أي مدىٰ يؤثر هذا اللبن في بدن الطفل وإفساد مزاجه وإرخاء قواه، بحيث لا يزال ماثلاً فيه إلىٰ أن يشتد ويبلغ مبلغ الرجال، فإذا أراد منازلة الأقران في الحرب خارت قواه وضعفت عزيمته ووهن عن مقارعة الأنداد وكان السبب في ذلك هذا الغيل الذي لحق به وهو صغير. (١)

وهذا أمر غريب لا يفطن إليه إلا أولوا الألباب ، ومن ثم عبر عنه النبي ﷺ بلفظ غريب لا يؤدي مراده سواه.

ومن عدوله ﷺ عن اللفظ المعتاد إلىٰ الغريب النادر ما روي عن ربيعة بن عامر أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " أَلِظُّوا بِيا ذا الجَلالِ والإكرامِ ". (٢)

ومعنىٰ (أَلِظُّوا) أي: ألحوا في الدعاء بيا ذا الجلال والإكرام . (٣)

والسؤال هنا لماذا عدل النبي ﷺ عن (ألحوا) إلىٰ (ألظوا) ؟

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي ١٠/ ٢٦١ بتصرف ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط/ الثالثة ١٤١٥هـ .

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٩/ ١٣٨ .

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٤/ ٢٥٩ تح/ محمد عوض مرعب ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ٢٠٠١م.

وجواب ذلك يستبين بمراجعة الدلالة الخاصة بكل من الكلمتين، حيث يقول صاحب التاج : أَلَظَّ بفلانٍ : لازمه ، و أَلَظَّ المطرُ: دام، و أَلَظَّ بالمكان: أقام به ، والإلظاظُ : لزوم الشيء والمثابرة عليه، ومنه حديث (ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام) أي: الزموا ذلك واثبتوا عليه وأكثروا من قوله . (١)

أما (أَلَحَّ) علىٰ الشيء فمعناه: أقبل عليه لا يفتر عنه، وتأتي بمعنىٰ الألم، ومنه: أَلَحَّ الحذاءُ علىٰ الإصبع : عقره (٢).

وألح الرجل علىٰ غريمه في التقاضي : إذا واظب ، والمِلْحَاحُ من الرجال: الذي يلزق بظهر البعير فيعضه ويعقره ... وقد ألح القتب علىٰ ظهر البعير إذا عقره ... وألحتْ الْمَطِيُّ : كَلَّتْ فأبطأت . (٣)

وعلىٰ ذلك فإن في (ألظوا) معنىٰ اللزوم والدوام والإقامة والمثابرة في طلب الشيء المراد، وكل هذه المعاني تتناسب مع حال الداعي المتضرع، الذي يلزم مكانه ولا يبرحه ، ويناجي الخالق سبحانه دون الالتفات إلىٰ سواه، ويقيم علىٰ حاله لا يتغير ولا يصرفه عن مطلبه صارف.

وبعض هذه المعاني نراها موجودة في (أَلَحَّ) ولكن تزيد (أَلَحَّ) علىٰ (أَلَظَّ) أن بها ملازمة تحمل معها شيئًا من الضرر والأذىٰ والتعب كالألم والعقر والجرح ومطالبة

(١) تاج العروس ٢٠/ ٢٧٢.

(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٨١٧ بتصرف ـ صادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ تح/ إبراهيم مصطفىٰ وآخرين ـ دار الدعوة

(٣) لسان العرب ٢/ ٥٧٧ .

الغريم بما عليه. (١)

فحتىٰ لا يتسرب إلىٰ السامع أن الإلحاح في الدعاء ربما صحبه شيء من الألم النفسي أو الجسدي أو الكلال الذي يؤول بصاحبه إلىٰ عدم الملازمة، وترك المواظبة في دعاء الحق سبحانه = ترك النبي ﷺ الأشهر المعروف إلىٰ الغريب غير المألوف ، حتىٰ لا يكون هناك إضرار بالمعنىٰ المراد بيانه وتثبيته في قلوب السامعين.

وإذا استطردنا في ذكر الغريب في البيان النبوي سيطول بنا المقام ويكثر منا الكلام، ولعل الاكتفاء بما سبق أقرب رحمًا إلىٰ الاختصار، وأمس ببيان المراد.

وإلا فلا أظن أحداً لا يقول بغرابة قوله ﷺ " لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبُثَتْ نَفْسِي، ولَكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ نَفْسِي " (٢) ولقست بمعنىٰ خبثت، ولكنه " كره ﷺ أن يضيف المؤمن الطاهر إلىٰ نفسه الخبث والفساد بوجه من الوجوه ". (٣)

أو غرابة التعبير عن صغار المسلمين الذين ماتوا بقوله (صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الجَنَّةِ)(٤).

والدُّعْموصُ : دويبة صغيرة تكون في مستنقع المياه تتحرك بخفة وسرعة،

---

(١) ينظر: التوجيه البلاغي للغريب في الحديث النبوي ـ دراسة في أحاديث مشكاة المصابيح ـ إعداد/ كريم محمد محمد صديق ٦٤ ، ٦٥ ـ جامعة القاهرة ـ كلية دار العلوم ـ قسم البلاغة ـ ١٤٣٧هـ ٢٠١٦م.

(٢) صحيح البخاري ٨/ ٤١ تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر ـ دار طوق النجاة ـ ط الأولىٰ ١٤٢٢هـ .

(٣) الحيوان للجاحظ ١/ ٢٢٣ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط الثانية ١٤٢٤هـ .

(٤) صحيح الإمام مسلم ٣/ ٢٠٢٩ تح/ محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

والدعموص: الدَّخال في الأمور، والذي لا يحجب ، أي إنهم سياحون في الجنة دخالون في منازلها لا يُمنعون من موضع يريدونه، كما أن الصبيان في الدنيا لا يمنعون من الدخول علىٰ الحرم، ولا يحتجب منهم أحد. (١)

وفي هذا القدر كفاية، وإلا فمن أراد الاستزادة فعليه الرجوع إلىٰ كتب غريب الحديث ففيها ما يروي غلته، ويقضي نهمته.

ومن تمام الفائدة هنا أن يقال: إن الغرابة التي ذكرت في أحاديث رسول الله ﷺ هنا ليست هي الغرابة التي تجدها في بيانه ﷺ حين يخاطب الأعراب والأقوام البادين، لأن سياقات حديثه ﷺ معهم تقتضي مثل هذه الألفاظ التي لم تكن وحشية نافرة في مسامع المخاطبين، بل إنها كانت دوارة علىٰ ألسنتهم ومعروفة عندهم. (٢)

وإنما الغرابة التي ذكرت هنا كانت موجهة إلىٰ عامة الصحابة، ومع ذلك ذكرها أهل غريب الحديث في مصنفاتهم لكونها كانت نادرة الاستعمال قليلة التحدث بها.

الشق الثاني من الغرابة

هي الكلمة التي يحتاج التوصل إلىٰ المراد منها إلىٰ تخريج متكلف، لكونها تحتمل أكثر من معنىٰ، ومثالها المشهور في هذا الشأن:

وَفاحِمًا وَمَرسِنًا مُسَرَّجا

وقد سبق قول العلماء في المراد بكلمة (مسرجًا) في هذا البيت فلا داعي لذكره مرة أخرىٰ.

ولكن ما ينبغي الوقوف عنده هنا هو أن كلمة (مسرجا) ليست غريبة في حد ذاتها، وإنما الغرابة التي اكتنفتها والغموض الذي أحاط بها جاء من كون الكلمة احتملت مرادين من المعاني لا يُدرىٰ أي منهما هو المقصود.

---

(١) لسان العرب ٧/ ٣٦ بتصرف.

(٢) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسىٰ ٦٥ بتصرف .

لكن بالنظر في البيان العالي الوارد عن سيدنا رسول الله ﷺ يتبين أن هناك من الألفاظ ما حملت في دلالتها أكثر من معنىٰ داخل سياقها مع عدم وجود قرينة ترجح واحداً من المعنيين ، ومع ذلك لم تتهم تلك الألفاظ بكونها غريبة أو مبهمة الدلالة.

من ذلك دعاؤه ﷺ علىٰ رجل من المشركين بقوله : " اللَّهمّ اقطَع أثرَه ".(١)

وهذا يحتمل أنه دعا عليه بالزمانة ـ وهي العاهة أو المرض الذي يدوم طويلاً ـ ومن ثم يلازم الفراش فلا يستطيع المشي فينقطع حينئذ أثره، والوجه الثاني في الاحتمال: أنه دعا عليه بأن لا يكون له نسل من بعده أو عقب، ومن الممكن بأن يخرج علىٰ معنىٰ: أنه دعا عليه بألا يبقىٰ له من بعده أثر من الآثار كائنـًا ما كان من عقب أو بناء أو غراس أو غير ذلك. (٢)

ومنه قوله ﷺ لسيدنا جابر لما كان معه في سفر : " ما يُعْجِلُكَ يا جَابِرُ؟ فقال: إِنِّي حَديثُ عَهْدٍ بعُرْسٍ .... وفي آخر الحديث قال له : " إِذَا قَدِمْتَ فَالْكَيْسَ الكَيْسَ ".(٣)

والكيس هنا قيل المراد به : الجماع، وقيل المراد به : العقل . (٤)

علىٰ معنىٰ أنه حضه علىٰ طلب الولد بالجماع، إذ كان في وقته هذا لا ولد له، وأن يكون أمره بالتعقل والتحفظ والتوقي عند إصابة أهله مخافة أن تكون حائضـًا فيقدم

(١) سنن أبي داود ١/ ١٨٨ .

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير ١/ ٥٤ بتصرف .

(٣) صحيح الإمام مسلم ٢/ ١٠٨٨.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٢١٧ تح/ طاهر أحمد الزاوي ـ محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية ـ بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

عليها لطول الغيبة وامتداد العَزَبَة.(١)

ومن المفردات التي احتملت أكثر من معنىٰ ما أورده الإمام السيوطي في الإتقان في كلمة (عسعس) في قوله : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير ١٧] حيث بين أن كلمة (عسعس) تحتمل: أقبل وأدبر ، كما أن كلمة (قروء) في قوله تعالىٰ:﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ﴾ تحتمل : الحيض والطهر، والذي بيده عقدة النكاح في قوله تعالىٰ : ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ [البقرة ٢٣٧] فإنه يحتمل الولي، ويحتمل الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً. (٢)

وكذلك ما أورده ابن الأثير في المثل السائر في المراد بالقتل في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء ٢٩] حيث بين أن القتل يحتمل وجهين من التفسير، أحدهما: القتل الحقيقي، والآخر القتل المجازي وهو الانكباب علىٰ المعاصي؛ لأن ذلك يؤول بصاحبه إلىٰ قتل نفسه في الآخرة. (٣)

كما أن كلمة (شيء) في بيت عمر بن أبي ربيعة الذي يقول فيه:(من الطويل)

وكَـمْ مَـالِئٍ عَيْنَيْـهِ مِـنْ شَـيْءِ غَيْـرِهِ ∴ إِذَا رَاحَ نحوَ الْجَمْرَةِ البِيضُ كالـدُّمَىٰ (٤)

(١) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري لشمس الدين الكرماني ٩/ ٢١٦ بتصرف ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ط أولىٰ ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م / ط ثانية ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

(٢) ينظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٣/ ٥٩ تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

(٣) المثل السائر لابن الأثير ١/ ٥٣ بتصرف.

(٤) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٢٣ شرح د/ يوسف شكري فرحات ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

تحتمل المرأة ذات الزوج وتحتمل العزباء.

فهل لنا أن نقول في هذا وأمثاله : إنها كلمات غريبة لكون المعنىٰ المراد منها غير محدد الدلالة لدىٰ السامعين، أم أن عدم الوقوف بالمراد من الكلمة علىٰ معنىٰ واحد يؤدي إلىٰ توسيع دائرة المعنىٰ فيها، واكتنافها علىٰ أكثر من دلالة .

المبحث الثالث

مخالفة القياس والمراد منها

الشرط الثالث من شروط فصاحة المفرد هو خلوها من مخالفة القياس اللغوي، ويقصد به مجيء الكلمة غير جارية علىٰ قوانين اللغة وقواعد الصرف.

وذكر البلاغيون لهذا الشرط أمثلة تناثرت في مؤلفاتهم القيمة، من ذلك قول رؤبة: (من الرجز)

الحمـــــدُ للهِ العَلـــــيِّ الأجْلَـــــلِ ∴ أنـتَ مليـكُ النـاسِ ربًّـا فاقْبَـلِ (١)

حيث فك الإدغام من كلمة الأجل فقال (الأجلل) والقياس عدم الفك.

ومن فك الإدغام قول قعنب بن ضمرة : (من البسيط)

مهـلًا أعـاذلَ قـد جرَّبـتَ مـن خُلقـي ∴ أنِّـــي أجُـــود لأَقْـــوامٍ وإنْ ضَـــنِنُوا

والأصل : (وإن ضنوا) .(٢)

ومن المخالفة قول المتنبي: (من الطويل)

إذا كـانَ بَعـضُ النّـاسِ سَـيفًا لدَوْلَـةٍ ∴ فَفـي النّـاسِ بُوقـاتٌ لهَـا وطُبُـولُ

حيث جمع (بوق) علىٰ (بوقات) وهو خطأ، وإنما يجمع المذكر الذي علىٰ وزن (فُعْل) علىٰ (أفعال) مثل: قُفل وأقفال ، وعود وأعواد . (٣)

ومنها قول القائل: (من الوافر)

وأَكْـــرَهُ أنْ يَعِيـــبَ عَلَـــيَّ قَـــوْمِي ∴ هِجَـــايَ الأرْذَلِـــينْ ذَوي الحِنَـــاتِ

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ١/ ٢٦.

(٢) ينظر: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ١٥٠

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ٤٤٣ بتصرف ، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ـ مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه.

حيث جمع الشاعر : إحنة ـ وهي الحقد ـ علىٰ غير الجمع الصحيح فقال: الحنات، وحقها أن تجمع علىٰ : إحن. (١)

ثم تتابع البلاغيون في ذكر أمثلة أخرىٰ عدوها من مخالفة القياس اللغوي من ذلك قول البحتري (من الطويل)

تَشُقُّ عَلَيْهِ الرّيحُ، كلَّ عَشيّةٍ ∴ جُيُوبَ الغَمَامِ بَينَ بِكْرٍ وَأَيِّمِ

حيث استعمل (الأيم) في مكان الثيب، والأيم من لا زوج لها ولو كانت بكراً.(٢)

ومن ذلك حذف النون من (لكن) في قول القائل(من الطويل)

فَلَسْتُ بِآتِيهِ ولا أَسْتَطِيعُهُ ∴ وَلاكِ اسْقِنِي إِنْ كانَ مَاؤُك ذا فَضْلِ

أراد: ولكن اسقني.(٣)

ومنه حذف (أن) الناصبة للفعل المضارع وإبقاء عملها، في قول طرفة بن العبد:(من الطويل)

أَلا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرَ الْوَغَىٰ ∴ وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي

حيث نصب (أحضر) بـ(أن) المضمرة علىٰ غير قياس(٤) .

وعلىٰ مهيع المخالفة جاء قول المتنبي: (من البسيط)

أَبعِد بَعِدتَ بَياضاً لا بَياضَ لَهُ ∴ لأَنتَ أَسوَدُ في عَيني مِنَ الظُلَمِ

حيث استعمل أفعل التفضيل (أسود) من وزن (أفعل) الذي مؤنثه (فعلاء) وهذا

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ٨٢ بتصرف .

(٢) ينظر: سر الفصاحة لابن سنان ٧٨ .

(٣) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني ٢/ ٢٦٩

(٤) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ١/ ٥٥٩ .

لا يتم إلا بمساعدة ، كأن يقال: لأنت أشد سواداً. (١)

هذا ما قرره أهل البلاغة عن مخالفة القياس اللغوي في الكلمة المفردة، ومع وافر التقدير والاحترام لأولئك السادة الأعلام الذين قرروا تلك القاعدة، وأسسوا بنيانها علىٰ أمثلة وصفوها بالشذوذ ، إلا أن هناك كلمات وأمثلة مشابهة خرجت من تحت عباءة القياس اللغوي الذي ثبت عن الواضع، فجاءت تتهادىٰ في البيان العالي، دون أن يستطيع أحد أن ينظر إليها شذراً ، أو يقبل لأحد في مخالفتها عذراً، من ذلك :

١- المقابلة بين البكر والأيم:

فإذا كانوا قد عابوا علىٰ الشاعر مقابلته بين البكر والأيم في بيت واحد، مريداً من الأيم معنىٰ (الثيب) كما في قول البحتري :

تَشُقُّ عَلَيْهِ الرّيحُ، كلَّ عَشِيّةٍ ∴ جُيُوبَ الغَمَامِ بَينَ بِكْرٍ وَأَيِّمِ

وقالوا: لقد وضع الشاعر الأيم مكان الثيب، وليس الأمر كذلك، وإنما الأيم التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً، واستدلوا علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور ٣٢] لأن مراد الحق سبحانه ليس نكاح الثيبات دون الأبكار، وإنما يريد النساء اللواتي لا أزواج لهن أبكاراً أو ثيبات، وعلىٰ ذلك فالمقابلة بين البكر والأيم غير مستقيمة. (٢)

نعم الأيم في المعجمات العربية تعني كما قال الآمدي وابن سنان التي لا زوج لها، وهي في الآية القرآنية كذلك، أبكاراً أو ثيبات، ولا يستطيع أن يجادل في ذلك أحد.

---

(١) ينظر: أمالي المرتضي (غرر الفوائد ودرر القلائد) للشريف المرتضىٰ ٢/ ٣١٧ تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربية ـ ط الأولىٰ ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م.

(٢) ينظر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي ١/ ٣٧٦ تح/ السيد أحمد صقر ـ دار المعارف ـ ط الرابعة، وسر الفصاحة ص ٧٨.

ولكن إذا جاءت كلمة (الأيم) في كلام أفصح الخلق ﷺ مراداً بها (الثيب) فقط، مع المقابلة بينها وبين البكر ندرك أن أبا عبادة لم يقع في شعره المستشهد به شيء يخرج الكلمة عن فصاحتها، كما زعم أهل التقعيد ولا أدل علىٰ صحة ما ذهب إليه الشاعر مما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : "لا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حتَّىٰ تُسْتَأْمَرَ، ولا تُنْكَحُ البِكْرُ حتَّىٰ تُسْتَأْذَنَ. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، وكيفَ إذْنُها؟ قالَ: أنْ تَسْكُتَ ". (١)

فها هو ﷺ يجمع بين البكر والأيم، ويقابل بينهما في كلام واحد، ومراده من (الأيم) في الحديث (الثيب) خاصة ولا شيء سوىٰ ذلك.

فهل لأحد هنا أن يقول: إن استعماله ﷺ لكلمة (الأيم) هنا مريداً بها (الثيب) خاصة مخالف للقياس اللغوي؛ لأن (الأيم) يراد بها من لا زوج لها بكراً كانت أو ثيبًا، ومن ثم لا تجمع مع البكر؟ لا أظن ذلك يكون أبداً ... ولعل الذي يهدي إلىٰ المراد من الكلمة علىٰ وجه الدقة هو النظر في سياق ورودها من الكلام فإن جاءت الأيم (وحدها في السياق شملت البكر والثيب، وإذا جاءت مع البكر اقتصرت علىٰ الثيب فقط، وهي في الحديث الشريف وقول البحتري جاءت مقابل البكر فكانت بمعنىٰ الثيب، وعلىٰ هذا فاستعمال البحتري لهذه اللفظة صحيح فصيح ويسقط معه كلام العائبين) (٢) وليس في الكلمة مخالفة للقياس كما زعموا.

٢- حذف جزء من الكلمة بدون علة:

ومن ذلك أنهم عابوا علىٰ الشاعر قوله ـ علىٰ لسان ذئب ـ

فقلتُ له يا ذِئْبُ هَلْ لك في أَخٍ ∴ يُوَاسِي بلا مَنٍ عليكَ ولا بُخْلِ

فقال هَدَاكَ اللهُ إِنَّك إِنَّما ∴ دَعَوتَ لِمَا لَمْ يَأْتِهِ سَبُعٌ قَبْلِي

(١) صحيح البخاري ٧/ ١٧ ، وصحيح مسلم ٢/ ١٠٣٦ .

(٢) المآخذ علىٰ فصاحة الشعر إلىٰ نهاية القرن الرابع الهجري ٢٨١ ، ٢٨٢.

فَلَسْـــتُ بِآتِيـــهِ ولا أَسْـــتَطِيعُهُ ∴ وَلاكِ اسْقِنِي إِنْ كانَ مَاؤُك ذا فَضْـــلِ

حيث حذف النون من (لكن) فقال: ولاك اسقني بدون علة لغوية. (١)

ولا أدري كيف عاب البلاغيون هذا الحذف من الشاعر، وفي كتاب الله الذي بين أيديهم كثير من الكلمات التي حذف جزء من حروفها بدون علة لغوية.

وإن تعجب فعجب أن ترىٰ في الذكر الحكيم الكلمة بذاتها في نفس ترتيبها بين أخواتها مرة مكتملة الحروف والأركان ، ومرة محذوفًا منها جزء ، من ذلك قوله تعالىٰ في سورة النحل: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النحل ١٢٧] وقوله في النمل : ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النمل ٧٠].

والناظر في سياق الآيتين يَبِيْنُ له العلة البيانية التي انضوت تحت ظلال النظم العالي وكانت سببًا في حذف النون من الفعل (تكن) في النحل دون النمل، وذلك بأن آية النحل نزلت في أعقاب غزوة أحد بعدما مَثَّل المشركون بحمزة ـ رضي الله عنه ـ فحزن ﷺ عليه حزنًا شديداً، وأقسم إن أظهره الله عليهم ليمثلن بسبعين منهم، فطالبه الحق سبحانه بعدم المبالغة في العقوبة، مع التحلي بالصبر وطرح الضيق من الصدر فقال: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [سورة النحل:١٢٦-١٢٧]، أي: لا يكن في صدرك شيء من الضيق مهما قل، ومن ثم كان طرح النون من قوله﴿وَلَا تَكُ﴾ وتخفيف النطق به إشارة إلىٰ ضرورة طرح الضيق من صدره وعدم الاهتمام به ، تخفيفًا

(١) ينظر: سر الفصاحة ٨٠ .

للحدث الذي ألم به ، وتهويناً علىٰ نفسه ﷺ ، أما آية النمل فكانت في سياق إنكار البعث من المشركين وعدم اقتناعهم بأن هناك داراً آخرة يؤول إليها جميع الخلق ، ومن ثم قالوا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة النمل:٦٧-٦٨]، ولما كان منهم ذلك دعاهم سبحانه للسير في الأرض والاعتبار بما حاق بالمكذبين السابقين فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ثم دعاه ﷺ إلىٰ عدم الحزن عليهم بعدما بلغ ما أوحاه الله إليهم فقال : ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وعليه لما كان حزنه ﷺ هنا أقل من حزنه علىٰ التمثيل بعمه حمزة، جاء الفعل مكتملاً ولم يطرح منه شيء. (١)

ومع كون كثير من رجالات البلاغة ذكروا قول الشاعر : (ولاك اسقني) ضمن مخالفة القياس اللغوي، إلا أن هذا القول لم يعدم له مدافعاً ومناصراً من أصحاب الذوق الشفيف، الذين لا يكتفون بالنظر إلىٰ ظاهر النص، بل يتغلغلون في باطن الكلام لاستجلاء الأسرار الجمالية التي انطوت عليها الألفاظ والتراكيب ، وبيان ما فيها من إيحاءات وإشارات ربما خفيت علىٰ من علق نظره بظاهر اللفظ دون مخبره.

من ذلك ما علق به الشيخ أبو موسى على هذا البيت قائلاً : زعم الشاعر أنه أراد أن يصطحب ذئباً في صحراء موحشة ، ولكن الذئب رفض هذه الصحبة، وقال له : (ولست بآتيه ولا أستطيعه) ثم طلب الذئب من الشاعر ماءً إن كان عنده فضل منه ليروي به عطشه فقال : (ولاك اسقني) والشاعر أراد بهذا أن يؤكد أنه يجوب فلاة مهلكة يضل فيها الذكي والبليد، والذئب الذي هو ابن الصحراء

(١) ينظر: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا الأنصاري ١/ ٣١٧ ، تح/ محمد علي الصابوني ـ دار القرآن الكريم ـ بيروت ـ لبنان ـ ط الأولىٰ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

والخبير بها يجهل فيها موضع الماء الذي يروي عطشه ، ومن ثم جاء قوله (ولاك اسقني) علىٰ الحذف، والأصل : (ولكن اسقني) وما ذاك إلا طلبًا للخفة لمناسبة حاله المتهالكة من شدة العطش، فكأن الذئب فيها قد تعثر لسانه ويبس، فخطف الكلمة وأسقط منها ما أسقط لسرعة الوصول إلىٰ المقصود، وهي سقي الماء المنجي له من الهلاك. (١)

علىٰ أن حذف الحرف من الكلمة بغير داعٍ لم يقتصر علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بل إنك واجد ذلك بكثرة في الذكر الحكيم، من ذلك حذف الياء من الفعل المضارع (نبغي) في قصة موسىٰ والخضر ـ عليهما السلام ـ حيث يقول سبحانه : ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف ٦٤] مع بقاء الياء في الفعل ذاته في قصة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ حيث جاء علىٰ لسان إخوته قولهم : ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ﴾ [يوسف ٦٥].

ومن ذلك حذف الواو من الفعل (يدعو) في قوله تعالىٰ : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر ٦] وثبوتها في قوله : ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر٦].

ومنه حذف الألف من الفعل (أخذنا) في قوله تعالىٰ : ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء ٢١] ومن ثبوتها في الفعل نفسه قوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء ١٥٤].

(١) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسىٰ ص ١٥٥ ، ١٥٦ بتصرف.

ومنه ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف ٧٨] بثبوت التاء، وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الكهف:٨٢]، بحذف التاء.

وعلىٰ غرار ذلك :﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [سورة الكهف:٩٧].

ومنه قول طرفة: (من الطويل)

فـإنْ كُنْـتَ لاَ تَسْطِيْـعُ دَفْـعَ مَنِيَّتِـي ∴ فَدَعْنِـي أُبَادِرْهَـا بِمَـا مَلَكَـتْ يَـدِي (١)

وهكذا لو تتبعت البيان العالي لوجدت فيه من ذلك ما يضيق المقام عن ذكره، ولا يتسع الوقت لحصره، ووراء كل منها لطيفة بيانية تستشف من النظر في سياق الكلام والغرض المؤم منه.

٣- حذف (أن) الناصبة وإبقاء عملها:

من الأمثلة التي أوردها البلاغيون للدلالة علىٰ مخالفة القياس اللغوي قول طرفة:

أَلا أَيُّهَـذَا اللائِمِـي أَحْضُـرَ الْـوَغَىٰ ∴ وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذّاتِ هَـلْ أَنْـتَ مُخْلِدِي(٢)

حيث نصب الفعل (أَحْضُرَ) بدون أن يتقدمه (أن) الناصبة، وهذا الحذف جَوَّزه البصريون بشرط أن يرفع الفعل بعدها، أي إنهم يبطلون عملها، وحجتهم في ذلك أن عوامل الأفعال ضعيفة، فلا تعمل حالة حذفها. (٣)

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ص ٢٥

(٢) ديوان طرفة ٢٥ ، وينظر : بغية الإيضاح ١/ ١٧ هامش (٤).

(٣) ينظر: ائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة للزبيدي ص ١٥٠ تح/ طارق الجنابي ـ عالم الكتب ـ مكتبة النهضة العربية ـ ط الأولىٰ ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧م.

أما الكوفيون فيجيزون حذف (أن) الناصبة قبل الفعل المضارع مع بقاء عملها (النصب). (١)

وقد استدل الكوفيون على مذهبهم هذا بعدة أشياء:

أولاً: من بعض قراءات القرآن الكريم، كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة ٨٣] حيث قرأها أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود (لا تعبدوا) بحذف النون ونصب الفعل بـ(أن) مضمرة علىٰ تقدير : ألا تعبدوا إلا الله. (٢)

وكما في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر ٦] حيث قرأ الأعمش الفعل المضارع منصوبًا (تستكثرَ) وقد كشف ابن جني عن سر قراءة الأعمش بنصب الفعل المضارع فقال:

(فأما (تستكثرَ) بالنصب فبأن مضمرة علىٰ ما أذكره لك، وذلك أن يكون بدلا من قوله وَلاَ تَمْنُن علىٰ المعنىٰ ، ألا ترىٰ أن معناه لا يكن منك مَنٌّ واستكثار؟ فكأنه قال: لا يكن منك منٌّ من أن تستكثرَ فتضمر (أن) لتكون مع الفعل المنصوب بها بدلاً من المن في المعنىٰ الذي دل عليه الفعل). (٣)

ومثل ذلك قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر ٦٤] حيث ذكر أبو حيان أن هناك قراءة بنصب الفعل المضارع (أعبد) علىٰ

---

(١) ينظر: ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي ٢/ ٤٢٣ تح/ رجب عثمان محمد ـ مكتبة الخانجي بمصر ـ ط الأولىٰ ١٩٩٨م.

(٢) مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه ـ ص ٧ ، بعناية (برجستراسر) ـ مكتبة المتنبي ـ القاهرة (دون تاريخ).

(٣) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني ٢/ ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، الناشر: وزارة الأوقاف ـ المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

إضمار (أن) وإبقاء عملها. (١)

ثانيا: استدل الكوفيون علىٰ جواز حذف (أن) الناصبة وإبقاء عملها بما ورد في الشعر العربي من ذلك قول طرفة السابق ذكره:

أَلا أَيُّهَـذَا اللائِمِـي أَحْضُـرَ الْـوَغَىٰ ∴ .....

حيث نصب طرفة الفعل المضارع (أَحْضُرَ) وذلك علىٰ إضمار (أن) وبقاء عملها، ودليلهم في هذا أن الشاعر عطف أن والفعل المضارع في بداية الشطر الثاني(وأن أشهد) علىٰ المضارع المتقدم (أحضر) فدل ذلك علىٰ جواز حذفها مع بقاء عملها.(٢)

ولعل ما دفع طرفة إلىٰ حذف (أن) وإبقاء عملها هو ضيق المقام ، والخوف من ضياع الوقت في اللوم والعتاب ، لأن الساعة ساعة حرب ، ولا وقت لديه في إطالة الكلام مع لائمه والاستماع إلي زجره ومنعه من منازلة الأبطال ... في حين أن الشطر الثاني لما كانت ساعته ساعة بسط وطرب ولهو أطال فيها الكلام ، ولم يختصر منه شيئًا كما اختصر في الشطر الأول ، ومن ثمَّ ذكر (أن) والمضارع بعدها فقال :

وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي

ومنه أيضًا قول عامر بن جوين الطائي: (من الطويل)

فَلـــم أر مثلهَـــا خباســـة وَاحِـــد ∴ وَنَهْنَهْتُ نَفسِي بَعْـدَمَا كِـدتُ أَفعلَـهْ(٣)

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٩/ ٢١٨ تح/ صدقي محمد جميل ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤٢٠هـ.

(٢) ينظر: شرح الرضي علىٰ الكافية ١/ ٧٣ ، ٤/ ٥٤ ، تح د/ يحيىٰ بشير مصري ـ نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ـ الرياض ١٩٩٧م.

(٣) الخباسة : الغنيمة ، والمراد بها هنا الأموال . ينظر : المخصص لابن سيده ٤/ ٢٨٤ ، تح/ خليل إبراهيم جفال ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط أولىٰ ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
ونهنهت نفسي: كففتها وزجرتها . ينظر : لسان العرب ١٣/ ٥٥٠.

وشاهده أن الشاعر نصب (أفعله) بأن المضمرة، والتقدير: بعدما كدت أن أفعله.(١) وإذا فتشت في قول عامر : (وَنَهْنَهْتُ نَفسِي بَعْدَمَا كِدتُ أَفعلَهْ) رأيت فيه اقتراب وقوع الفعل منه بصورة ليس فيها حاجز يمنعه أو عائق يحول بينه وبين ما أراد الإقدام عليه ، والعزم علىٰ المضي فيه ، وهو الاستيلاء علىٰ تلك الخباسة وهي الغنيمة ـ كما قالوا ـ ومن هنا أسقط الواسطة بينه وبين هذا الفعل ، وهي (أن) تنبيهاً علىٰ أنها كانت في متناول يده وتحت قبضته وليس بينه وبينها ما يمنعه من ذلك ، ولكنه حبس نفسه عما أراد وعما تدعوه إليه؛ لأن هذا الفعل ليس من المروءة في شيء ، ثم مخافة أن تعيره العرب بذلك.

وعلىٰ متن سفينة الكوفيين جاء قول أبي طالب:(من الطويل)

فقد خِفتُ إنْ لم يُصْلحِ اللهُ أمْرَكُمْ ∴ تكونوا كما كانَتْ أحاديثُ وائلِ

حيث جاء الفعل (تكونوا) منصوباً بأن مضمرة مع بقاء عملها، والتقدير أن تكونوا.(٢) وكأن الخوف الذي اعترىٰ أبا طالب هو ما دعاه إلىٰ سرعة بيان ما يترتب علىٰ عدم الإصلاح بين تلك العشيرة ، ومن هنا أسقط (أن) من جملة كلامه فقال : (تكونوا كما كانَتْ أحاديثُ وائلِ) نفاذاً منه إلىٰ المقصود ووصولاً إلىٰ المراد من الكلام.

وعلىٰ منوال طرفة بن العبد وعامر بن جوين (من الجاهليين) نسج المتنبي ـ وهو كوفي المذهب ـ فقال: (من البسيط)

وَكُلَّما لَقِيَ الدينارُ صاحِبَهُ ∴ في مُلكِهِ اِفتَرَقا مِن قَبلِ يَصطَحِبا

(١) ينظر : شرح أبيات سيبويه للسيرافي ١/ ٢٢٢ تح / محمد علي الريح هاشم ـ الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ـ دار الفكر للطباعة والنشر ـ مصر ـ ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

(٢) ينظر: ضرائر الشعر لابن عصفور ١٥٣ ، تح/ السيد إبراهيم محمد ـ دار الأندلس للطباعة والنشر ـ ط الأولىٰ ١٩٨٠م.

قال ابن جني : " أراد من قبل أن يصطحبا ، فحذف (أن) وبقي عملها بحاله". (١)

وذلك لأنه أراد من حذفها في قوله : (اِفتَرَقا مِن قَبلِ يَصطَحِبا) أن يُعلم السامع أن ممدوحه هذا كريم جداً ومعطاء جواد ، لدرجة أنه ينفق الدينار بمجرد لقائه به وحوزته إياه، فليس للدينار عنده مكان يأوي إليه أو يستريح في ظله ، بل بمجرد وقوعه في حوزته يبادر بإنفاقه علىٰ من هو أولىٰ به ، ومن ثمَّ ليس هناك فرصة لأن يكون بين الدينار وممدوحه صحبة أو ألفة ، وعليه أسقط (أن) التي ربما أوحىٰ وجودها بوجود مدة زمنية ـ ولو قليلة ـ تجمع بين الدينار وصاحبه ، فبإسقاطها أسقط العلاقة بين الرجل وماله ، وقطع الرحم التي من الممكن أن تؤلف بين تلك الأموال .

ثالثا: ومن أدلة الكوفيين علىٰ صحة مذهبهم أقوال العرب، حيث ورد عن العرب حذف (أن) وإبقاء عملها في أكثر من قول ، من ذلك : (تسمعَ بالمعيديِّ خيرٌ من أنْ تراه) وتقديره: أن تسمع ، فحذف (أن) وأبقىٰ عملها. (٢)

ومنه قولهم : مُرْهُ يَحْفُرَهَا ... وخُذِ اللصَّ قبلَ يَأْخُذَكَ ، بنصب (يحفرها ... ويأخذها) علىٰ إضمار (أن). (٣)

ولعل الناظر بعين الإنصاف فيما سبق من قراءات وأشعار وأقوال جاءت عن العرب يجعل النفس مطمئنة إلىٰ أن حذف (أن) الناصبة وإبقاء عملها أمر جائز في العربية، وليس مخالفًا للقياس كما قال البلاغيون، كما أن من الإنصاف ـ كذلك ـ

---

(١) الفسر لابن جني ٣٩٢.

(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي ٨/ ٣٧٩ تح/ عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ط الرابعة ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

(٣) ينظر: ضرائر الشعر لابن عصفور ١٥٢.

ألا يجعلنا الميل إلىٰ المذهب البصري أن نحكم علىٰ قراءة قرآنية وردت عن بعض الصحابة الكرام الذين نزل فيهم القرآن بأنها مخالفة للقواعد التي اتفق عليها اللغويون، مادام باب الاختلاف مفتوحاً بين الفريقين.

ومما يستأنس به في بيان فضل القراءة في إثبات الحكم النحوي قول أبي حيان: "إن لسان العرب ليس محصوراً فيما نقله البصريون فقط، والقراءات لا تجيء علىٰ ما علمه البصريون ونقلوه، بل القراء من الكوفيين يكادون يكونون مثل قراء البصرة". (١)

وقول ابن الحاجب : " إذا اختلف النحويون والقراء كان المصير إلىٰ القراء أولىٰ، لأنهم ناقلون عما ثبتت عصمته من الغلط ﷺ ولأن القراءة ثبتت تواتراً وما نقله النحويون فآحاد، ثم لو سلم أن ذلك ليس بمتواتر فالقراء أعدل وأكثر، فالرجوع إليهم أولىٰ، وأيضاً لا ينعقد إجماع النحويين بدونهم، لأنهم شاركوهم في نقل اللغة ... وقال الإمام الفخر : أنا شديد العجب من النحويين إذا وجد أحدهم بيتاً من الشعر ، ولو كان قائله مجهولاً يجعله دليلاً علىٰ صحة القراءة، وفرح به ، ولو جعل ورود القراءة دليلاً علىٰ صحته كان أولىٰ، وقال صاحب الانتصاف : ليس القصد تصحيح القراءة بالعربية بل تصحيح العربية بالقراءة " . (٢)

أليس كل ذلك يجعل النفس مطمئنة إلىٰ جواز حذف (أن) الناصبة مع إبقاء عملها ، ومن ثم رفع تهمة مخالفة القياس اللغوي عما ورد عن العرب في ذلك.

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٧٥٤.

(٢) غيث النفع في القراءات السبع لعلي بن محمد الصفاقسي ١٠٤ تح/ أحمد محمود عبد السميع الشافعي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م ، وينظر : دراسات لأسلوب القرآن الكريم د/ محمد عبد الخالق عضيمة ٧/ ٦٤٨ ـ تصدير / محمد محمود شاكر ـ دار الحديث ـ القاهرة (من دون تاريخ) .

٤- صياغة أفعل التفضيل من (أَفْعل) الذي مؤنثه (فَعْلاء) :

عد البلاغيون صياغة أفعل التفضيل من (أفعل) الذي مؤنثه (فعلاء) في قول المتنبي:

..... ∴ لأَنْتَ أَسْوَدُ فِي عَيْني من الظَّلَمِ

من مخالفة القياس اللغوي ، حيث استعمل الشاعر اسم التفضيل (أسود) من أفعل الذي مؤنثه فعلاء (سوداء) وهذا لا يتم إلا بمساعدة ، كأن يقال: لأنت أشد سواداً من هذا. (١)

وهذه المخالفة التي اتكأ عليها البلاغيون إنما هي قائمة علىٰ رأي إحدىٰ المدرستين اللتين قام عليهما النحو العربي، وهما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، والمذهب البصري وحده هو من منع صياغة اسم التفضيل من كل ما كان علىٰ أفعل الذي مؤنثه فعلاء ، كأسود سوداء وأبيض بيضاء. (٢)

أما الكوفيون فذهبوا إلىٰ جواز أن يستعمل (ما أفعله) في التعجب من البياض والسواد خاصة، نحو أن تقول: هذا الثوب ما أبيضه، وهذا الشعر ما أسوده، واحتجوا علىٰ ذلك بالنقل والقياس، أما من النقل فذكروا بعض الأمثلة علىٰ هذا، منها قول القائل: (من البسيط)

إِذَا الرِّجَالُ شَتَوْا وَاشْتَدَّ أَكْلُهُمُ ∴ فَأَنْتَ أَبْيَضُهُمْ سِرْبَالَ طَبَّاخِ (٣)

ووجه الاحتجاج: أن الشاعر قال (أبيضهم) وإذا جاز ذلك في (أفعلهم) جاز في

---

(١) ينظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ص ٤٣٩ ، وأمالي المرتضىٰ للشريف الموسوي ٢/ ٣١٧ .

(٢) ينظر : ارتشاف الضرب لأبي حيان الأندلسي ٤/ ٢٠٨٢ ، ٢٠٨٣.

(٣) البيت في خزانة الأدب للبغدادي ٨/ ٢٢٣٠ ، ونسب لطرفة وليس في ديوانه ، والسربال : القميص.

(ما أفعله وأفعل به) لأنهما بمنزلة واحدة، واستشهدوا علىٰ ذلك بقول الراجز :

جارِيَـــةٌ فِي دَرْعِهـــا الفَضْـــفاضِ ∴ تُقَطِّـــعُ الحَـــدِيثَ بِالإِيْمـــاضِ

أَبَـــيْضُ مِـــنْ أَخْـــتِ بَنِـــي أَبَـــاضِ

حيث قال الشاعر (أبيض) وهو (أفعل) من البياض، وإذا جاز ذلك في (أفعل من كذا) جاز في (ما أفعله وأفعل به) لأنهما بمنزلة واحدة في هذا الباب ... ومعنىٰ (تقطع الحديث بالإيماض) أي إذا ظهرت أو ابتسمت ترك الناس حديثهم ونظروا إليها، وبنو أباض قوم اشتهروا ببياض نسائهم ... أما عن القياس فقال الكوفيون: إنما جوزنا ذلك من السواد والبياض دون سائر الألوان لأنهما أصلا الألوان، ومنهما يتركب سائرها، فإذا كان هما الأصلين للألوان كلها جاز أن يثبت لهما ما لا يثبت لسائرهما.(١)

إذاً القول بمخالفة القياس في مجيء اسم التفضيل فيما كان علىٰ (أفعل فعلاء) مثل أسود وسوداء وأبيض وبيضاء = قول قال به البصريون، وقد مر بنا قول أبي حيان: إن لسان العرب ليس محصوراً فيما نقله البصريون فقط.

أما الكوفيون فيجيزون مثل ذلك لاعتمادهم علىٰ النقل والقياس ، وعليه فلا ينبغي أن يعاب المتنبي فيما أورده من صياغة اسم التفضيل من أفعل الذي مؤنثه فعلاء، لأن المتنبي كوفي المذهب، وهم يجيزون مثل هذا ولا يرون فيه مخالفة .

فقوله : (لأنت أسود في عيني من الظلم) صحيح فصيح علىٰ مذهبه، والذي تميل إليه النفس أن رأي الكوفيين في هذه المسألة هو الصواب، والميل هنا ليس تعصباً قائماً علىٰ هوىٰ النفس، وإنما هو ميل مؤسس علىٰ كثرة ما ورد من هذا في شعر العرب، من ذلك القول السابق : (فأنت أبيضهم سربال طباخ) ، وقول الراجز:

أَبَـــيْضُ مِـــنْ أَخْـــتِ بَنِـــي أَبَـــاضِ

وعلىٰ هذا الجواز جاء قول الشاعر: (من الطويل)

(١) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين والكوفيين لابن الأنباري ١/ ١٢١، ١٢٢، المكتبة العصرية ط الأولىٰ ١٤٢٤هـ ٢٠٠٢م.

وَأَبْـيَضُ مِـنْ مَـاءِ الحَديـدِ كَأَنَّـهُ ∴ شِهابٌ بَدَا وَاللَّيْلُ دَاجٍ عَساكِرُهُ(١)

وخير ما يستشهد به علىٰ صحة مذهب الكوفيين في جواز صياغة اسم التفضيل من (أفعل) الذي مؤنثه (فعلاء) ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ : " حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، ماؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، ورِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وكِيزانُهُ كَنُجُومِ السَّماءِ، مَن شَرِبَ مِنْها فلا يَظْمَأُ أَبَدًا"(٢). صدق رسول الله ﷺ .

وأخرجه الإمام مسلم بلفظ : (حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الوَرِقِ... الخ الحديث). (٣)

فهل لأحد أن يدعي بعد ذلك أن قوله ﷺ (وَماؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ....) أو (أَبْيَضُ مِنَ الوَرِقِ) ـ وهي الفضة ـ قول مخالف للقياس؛ لكونه جاء علىٰ غير ما اتفق عليه البلاغيون الذين اتبعوا المذهب البصري فيما ذهب إليه؟ أم يقال: إن ما ذهب إليه البلاغيون هنا مردود عليهم بما ورد في الشعر العربي وبما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ؟

❁❁❁❁❁

(١) البيت في شرح المفصل لابن يعيش ٤/ ٤١٧ تقديم/ إميل بديع يعقوب ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط الأولىٰ ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

(٢) صحيح البخاري ٨/ ١١٩ .

(٣) صحيح الإمام مسلم ٤/ ١٧٩٣.

المبحث الرابع

الكراهة في السمع وحقيقتها

من الشروط التي ذكرت في فصاحة المفرد (الكراهة في السمع) والمراد منها: أن تكون اللفظة بحيث يمجها السمع ، ويأنفها الطبع ويتبرأ منها كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة. (١)

ومبنىٰ ذلك علىٰ قياس التفاضل بين الألفاظ علىٰ أساس العذوبة، بأن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنًا ومزية علىٰ غيرها وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة ومن ثم فلا يخفىٰ علىٰ أحد أن تسمية الغصن فننا أحسن من تسميته عسلوجًا، وأن أغصان البان أحسن من عساليج الشوحط في السمع (٢) ، ومن ذلك قول المتنبي: (من الطويل)

إِذا سارَتِ الأَحداجُ فَوقَ نَباتِهِ ∴ تَفاوَحَ مِسكُ الغانِياتِ وَرَندُهُ (٣)

فإن (تفاوح) كلمة في غاية الحسن. (٤)

ومن الأمثلة المشهورة للكراهة في السمع كلمة (الجرشىٰ) بمعنىٰ النفس فىٰ بيت المتنبي الذي يمدح به سيف الدولة: (من المتقارب)

مُبَارَكُ الاسْمِ أغرُّ اللّقَبْ ∴ كَرِيمُ الجِرِشَّىٰ شرِيفُ النّسَبْ (٥)

وجعلوا من ذلك ـ أيضًا ـ كلمة (حقلد) في قول زهير بن أبي سلمىٰ :(من

---

(١) ينظر: حاشية الدسوقي علىٰ مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني ١/ ١٦٧ ت.

(٢) الشوحط : نوع من الشجر يتخذ منه القسي أو الرماح . ينظر: لسان العرب ٧/ ٣٢٨.

(٣) اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي ٤١٠ تح/ محمد سعيد المولوي ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ط ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

(٤) ينظر: سر الفصاحة ٦٥.

(٥) اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء المعري ١٠٤.

الطويل)

تقـــيٌّ، نقـــيٌّ، لـــم يكثـــرْ غنيمـــة ∴ بنَكْهَـــةِ ذِي قُرْبَـــىٰ، وَلا بِحَقَلَّـــدِ (١)

والحقلد : السيء الخلق أو البخيل، وقالوا: إن الحقلد في بيت زهير تزيد علىٰ قبح الجرشىٰ في بيت المتنبي. (٢)

وجعل ابن الأثير مبنىٰ الكراهة في السمع قائمـًا علىٰ أن الحسن والقبح ثابت للكلمة في ذاتها، بغض النظر عما تضاف إليه، وفي ذلك يقول: " وحسن الألفاظ وقبحها ليس إضافيـًا إلىٰ زيد دون عمرو؛ لأنه وصف ذووي لا يتغير بالإضافة، ألا ترىٰ أن لفظة المزنة مثلاً حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم، وهلم جرا، لا يختلف أحد في حسنها، وكذلك لفظة البعاق فإنها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم ". (٣)

ولاشك أن اعتبار الحسن والقبح أمراً ذاتيـًا في الكلمة بدون النظر إلىٰ موقع الكلمة من السياق الواردة فيه أمر مردود، وادعاء مرفوض، وإلا لخرج كثير من الكلمات القرآنية من دائرة الفصاحة والبلاغة استناداً علىٰ هذا الادعاء، كما في (ضِيْزَي ـ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ـ بِمُصْرِخِكُمْ ـ دُسُر ـ لَّيُبَطِّئَنَّ ...الخ) ولكن الأقرب إلىٰ القبول أن يكون حسن الكلمة وقبحها بالنظر إلىٰ موقعها من النظم وملائمة لفظها للمعنىٰ المؤدىٰ بها، وهذا ما قرره الإمام عبد القاهر في دلائله حيث يقول: " وهل تجد أحداً يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، ومن ملاءمة

(١) ديوان زهير بن أبي سلمىٰ ص ٤٠ شرح وتقديم / علي حسن فاعور ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط الأولىٰ ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

(٢) ينظر: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٣٠.

(٣) المثل السائر لابن الأثير ١/ ١٥٧ .

معناها لمعنىٰ جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه : قلقة ونابية ومستكرهة، إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم، وأن الأولىٰ لم تَلِقْ بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لِفْقًا للتالية في مؤداها؟".(١)

وما ذهب إليه الشيخ هنا ما هو إلا دعوة للتريث والتمهل في الحكم علىٰ الكلمات التي ظاهرها الكراهة أو القبح، وذلك من خلال النظر في السياق الذي وردت فيه هذه الكلمة، فربما كانت تلك الكلمة ـ الموسومة بالكراهة ـ لا يؤدي معناها سواها، ولا يسد مكانها غيرها، خاصة إذا كان ورودها في البيان العالي الذي يحتكم إليه أهل اللغة والبلاغيون عندما يشتجر بينهم خلاف حول مسألة من المسائل.

من ذلك كلمة (ضيزىٰ) الواردة في قوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم ٢٢] حيث تجد أن كلمة (ضيزىٰ) مع كراهتها في السمع حسنة في موقعها من النظم، بحيث لا يسد مكانها مما هو في معناها، من نحو: جائرة أو مائلة ؛ لأن المراد بيان قبح القسمة السابقة في دعواهم التي بينها الحق في قوله : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة النجم:١٩-٢٢]، ومن ثم لم يكن هناك لفظ يدل علىٰ القبح فضلاً علىٰ الجور والظلم أولىٰ من كلمة (ضيزىٰ) بجرسها ونفور السمع منها، ليقابل نفور الطبع فيما ذهبوا إليه من قسمتهم تلك، فانظر كيف دل قبح اللفظ علىٰ

(١) دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ٤٤ ، ٤٥.

قبح المعنىٰ وتشنيعه، مواءمة للغرض من الكلام. (١)

ومن الكلمات التي يصرف إليها عنان الفكر، ويقدح في سبيل الوصول إلىٰ اصطفائها زناد الرأي، مع كونها تلبس ثوب الكراهة ، وتتشح بإزار النفور = كلمة (الضراط) الواردة في قوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ، وله ضُرَاطٌ، حتَّىٰ لا يَسْمع التَّأْذِينَ، فَإِذَا قَضَىٰ النِّدَاءَ أَقْبَلَ، حتَّىٰ إِذَا ثُوِّبَ بالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حتَّىٰ إِذَا قَضَىٰ التَّثْوِيبَ أَقْبَلَ، حتَّىٰ يَخْطِرَ بيْنَ المَرْءِ ونَفْسِهِ، يقولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، لِما لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حتَّىٰ يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدْرِي كَمْ صَلَّىٰ)(٢) صدق رسول الله ﷺ .

والناظر بعين التأمل يبين له لماذا استخدم النبي ﷺ كلمة (الضراط) دون أن يقول مثلاً: أدبر مُخرِجًا ريحًا، أو أدبر مُحدِثًا صوتًا، أو أدبر صارخًا، أو ما شابه ذلك من الكلمات التي تدل علىٰ إحداث صوت ما من شأنه أن يمنع وصول الأذان إلىٰ سمعه، ليقف في نهاية هذا التأمل وذلك التدبر علىٰ أن استخدام النبي ﷺ كلمة (الضراط) دون سواها، ليبين لنا إلىٰ أي مدىٰ أدىٰ الحال بهذا اللعين إلىٰ كراهية الأذان وكراهية سماعه، ومن ثم ولىٰ هاربًا تاركًا وراءه صوتًا مكروهًا تأنفه الطباع وتنفر منه الأسماع، وهو صوت (الضراط) ليجعله سداً منيعًا وحصنًا حصينًا يمنع به وصول الأذان إلىٰ سمعه، واقتراب النداء من نفسه.

فلشدة كراهة الشيطان لصوت النداء عبر النبي ﷺ عن ذلك بلفظ مكروه في السمع، لتحاكي كراهية (الضراط) كراهية الشيطان لصوت الأذان.

---

(١) ينظر: مناقدة ابن سنان الخفاجي للمتنبي بين التحليل البياني والعمود الشعري ـ د/ علي عبد الحميد عيسىٰ ص ٣٦ ـ مطبعة العدوي ـ ط الأولىٰ ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٢٥.

ولم يقف الأمر عند النبي ﷺ في استخدام هذه الكلمة ، بل إن الصحابي الجليل (أبا هريرة) رضي الله عنه قرن معها أختها، وذكر بصحبتها صنوها، عندما احتاج الأمر إلىٰ ذلك ، ففي مسند الإمام أحمد ـ رضي الله عنه ـ أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : " لا تُقْبَلُ صَلَاةُ مَن أَحْدَثَ حتَّىٰ يَتَوَضَّأَ، فقالَ رَجُلٌ مِن حَضْرَمَوْتَ: ما الحَدَثُ يا أبَا هُرَيْرَةَ؟ قالَ: فُسَاءٌ أوْ ضُرَاطٌ " .(١)

وما من شك من كون (الفساء والضراط) لفظين مكروهين تمج الأذن سماعهما، وتتأذىٰ النفس من حدوثهما، ولكن الصحابي الجليل آثر ذكرهما وقرنهما ببعضهما صراحة دون أن يمنعه الحياء من ذلك؛ لأن السائل سأله عن ماهية الحدث الذي يخرج المصلي من صلاته، وهو بسؤاله هذا قد طرح بين يدي أبي هريرة عدم معرفته بأمر الحدث، وألقىٰ أمامه جهله بكنهه وحقيقة أمره، وعليه كان لابد من عدم تأخير البيان عن وقت الحاجة ، ومن ثم آثر الصحابي الجليل التصريح باسم الحدث الذي يقع في الصلاة فيبطلها، دون تلميح أو إشارة، وإن لم يكن هذا دأبه وعادته، وديدنه وهجيراه.

وإن تعجب من وقوع لفظ الضراط من الصحابي والنبي ﷺ فعجب أن تسمع أذناك لفظًا قلما يمرُّ علىٰ سمعك في كتب السنة، ولا يكاد يكون له فيها (أخ) يناصره، أو قرين يؤازره، لشدة ما به من كراهة في اللفظ والمنظر، والحقيقة والمخبر، وهو ما تصافحه عيناك في صحيح الإمام مسلم وأبي داود عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ حيث سأله أحد المشركين قائلاً : " قدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ كُلَّ شيءٍ حتَّىٰ الخِراءَةَ ؟ قالَ أجَلْ، لقَدْ نَهانا أنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ بِغائِطٍ، أوْ بَوْلٍ، وأنْ نَسْتَنْجِيَ باليَمِينِ، وأنْ لا يَسْتَنْجِيَ أحَدُنَا بأَقَلَّ مِن ثَلاثَةِ أحْجارٍ، أوْ نَسْتَنْجِيَ برَجِيعٍ،

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٣/ ٤٤٣ .

أَوْ عَظْمٍ ". (١)

ولست في حاجة إلىٰ كثير تأمل، أو وافر تبصُّرٍ كي تدرك ما اللفظ المكروه الذي ورد في الحديث السابق، نعم إنه لفظ (الخراءة) الوارد في جملة : (قدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ كُلَّ شيءٍ حتَّىٰ الخِراءَةَ) ، وهو اسم لهيئة الحدث أو فعل التغوط (٢) ، وما من شك في أن النفس تمج مثل هذه الألفاظ ، وتنفر من سماعها وتأنف من جريانها علىٰ اللسان، ومروها في صماخ الآذان، وكيف لا ؟ وهو لفظ يصور لك هيئة قضاء الحاجة من الغائط، وكأنها رأي عين دون تورية أو كناية أو مواربة، في مشهد طالما حرص الناس علىٰ ستره، وبالغوا في إخفاء أمره، ولكن الأمانة التي تحلىٰ بها الصحابة الكرام جعلت سيدنا سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ ينقل لنا مقولة أحد المشركين له كما هي دون زيادة أو نقصان، وكان يستطيع ـ رضي الله عنه ـ تغطية هذا اللفظ بمعنىً آخر يقوم مقامه ويؤدي مراده، ولكنه أثر نقل اللفظ كما هو لينقل للسامعين مدىٰ السخرية والاستهزاء التي امتلأت بها نفوس المشركين تجاه الإسلام ونبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتىٰ جاء أحدهم يتكلم في شأن قضاء الحاجة وأمر المراحيض، دون أن يمنعه الحياء من ذلك، أو يرده الخجل هنالك، متجاهلاً مكارم الأخلاق، وجميل الآداب ومحاسن الشيم، التي يدعو إليها الإسلام ونبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ

وكأن سلمان ـ رضي الله عنه ـ يريد بإجابته إياه ، وذكر تعاليم قضاء الحاجة التي علمهم إياها رسول الله ﷺ من النهي عن استقبال القبلة ببول أو غائط، مع ترك الاستنجاء باليمين، وترك الاستنجاء بأقل من ثلاثة أحجار ، مع عدم استخدام

(١) صحيح الإمام مسلم ١/ ٢٢٣ ، وسنن أبي داود ١/ ٣ .

(٢) ينظر: اللسان ١/ ٦٤.

العظم أو رجيع الحيوانات = كأنه يريد بذلك التعريض بحال هؤلاء المشركين أثناء قضاء حاجتهم من البول أو الغائط، وتذكيرهم بما هم عليه من تلبس بالنجاسات واقتران بالقاذورات، وكشف للعورات، وهتك للأستار، والجلوس في مرمىٰ الأبصار، ليعقد من كان له عقل بين ما جاء به الدين الحنيف، وما هم عليه من الجهل السخيف، ليعلم أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًا.

وقد يكون المقام داعيًا إلىٰ التصريح بما يستهجن ذكره، ويستقبح نطقه بحيث لا يجد المتكلم عنه عدولاً، ولا يستطيع عنه حولاً ولا تبديلاً، بل يكون النطق باللفظ المكروه ضربة لازب لابد منها، وإسماعك اللفظ المستقبح طريقة ناجعة لا محيد عنها.

من ذلك ما رواه البخاري ـ رضي الله عنه ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : " لَمَّا أَتَىٰ مَاعِزُ بنُ مَالِكٍ النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلَّمَ قَالَ له: لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ، أَوْ غَمَزْتَ، أَوْ نَظَرْتَ قَالَ: لا يا رَسولَ اللهِ، قَالَ: أَنِكْتَهَا. لا يُكَنِّي، قَالَ: فَعِنْدَ ذلكَ أَمَرَ برَجْمِهِ ". (١)

وفي لفظ لأبي داود : أَنَّه شَهِدَ علىٰ نفسِه أَنَّه أصاب امرأةً حَرامًا أربعَ مراتٍ، كلُّ ذلك يُعرِضُ عنه، فأقبَلَ في الخامسةِ، فقال: أَنِكْتَها؟ قال: نعَمْ، قال: حتىٰ غاب ذلك منك في ذلك منها؟ قال: نعَمْ، قال: كما يغيبُ المِرْودُ في المُكحُلةِ، والرِّشاءُ في البئرِ؟ قال: نعَمْ، قال: فهل تدري ما الزنا؟ قال: نعَمْ، أَتَيتُ منها حَرامًا ما يأتي الرجُلُ من امرأتِه حَلالًا، قال: فما تريدُ بهذا القولِ؟ قال: أريدُ أنْ تُطهِّرَني، فأمَرَ به فرُجِم ". (٢)

(١) صحيح البخاري ٨/ ١٦٧ بتصرف.

(٢) سنن أبي داود ٤/ ١٤٨.

ولا يخفىٰ أن اللفظ المستكره ذكره هنا هو لفظ (أنكتها) ، ومن المعلوم أن التصريح بمثل هذه الألفاظ ليس من عادته ﷺ وعلىٰ خلاف سجيته، ولم لا ؟ وقد كان خلقه القرآن يتخلق بأخلاقه ويعمل بنبيل صفاته، وليس من صفات الذكر الحكيم استعمال اللفظ المكشوف في التعبير عن لقاء الرجل بالمرأة ، بل تراه يلجأ إلىٰ التستر والكناية في الحديث عن هذا الأمر ، كمثل قوله : ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ [البقرة ٢٢٣] و ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾ [البقرة ١٨٨] و﴿ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [سورة النساء:٤٣] ،و ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾ [الأعراف ١٨٩]، و﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف ٢٣] إلىٰ غير ذلك من الألفاظ التي يكسوها الحياء ويعلوها القبول.

ولكن الأمر في حادثة ماعز بن مالك مع الغامدية مختلف جداً، وكيف لا؟ والرجل جاء مقراً علىٰ نفسه بالزنا في حادثة لم تحك لنا كتب السنة عن مثلها، ولم ترو متون الحديث شبيهًا لها، ومن ثم كان علىٰ النبي ﷺ التريث في إصدار الحكم علىٰ ماعز، ومراجعته الفينة بعد الفينة، والمرة بعد المرة، لعله يكون قد فعل ما لا يعد زنا صريحًا، بل تجَوَّز في نعت المقدمات بالزنا، ومن ثم قال له : (لعلك قبلك أو غمزت أو نظرت) كل ذلك من أجل أن يضع قدمه علىٰ لاحب الخلاص، أو يلقي إليه بطوق النجاة، في محاولة لرده عن إقراره، لدرأ الحد ودفع الفضيحة عنه؛ لأن الله سِتِّيرٌ يحب الستر.

ولكن لما لم يُجْدِ معه تلقين الحجة، وتنكب أسباب المحجة، لم يجد ﷺ بُدَّاً من التصريح باللفظ القبيح، لإزالة كل لبس من الكلام ، ونفي كل مجاز عنه، ومن ثم قال له: (أنكتها) هكذا صريحة مدوية واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار،

دونما كناية منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتىٰ يعلم ماعز أنه بمجرد تصديقه علىٰ هذا السؤال بـ(نعم) يكون قد أغلق علىٰ نفسه باب التأويل، وسد في وجهه طريق المجاز، ومِنْ ثَمَّ يجد نفسه وجهـًا لوجه أمام الحد الذي أمر الله به ... وقد كان ذلك فرحم الله ماعزاً وغفر له..

فهل لنا بعد كل ذلك أن نقر بما قاله البلاغيون من أن مجرد كون الكلمة مكروهة في السمع يخرجها من دائرة الفصاحة، ويبعدها عن نصاعة البيان، أم نقول: إن السياق الذي وردت فيه تلك الكلمة هو المسوغ الرئيس المقنع في إيراد تلك اللفظة دونما سواها مما يؤدي معناها في الظاهر ...

وإلا لكان ما ورد من كلمات في الذكر الحكيم والبيان النبوي خارجـًا عن دائرة الفصاحة بتلك القاعدة ... ولا أظن ذلك يكون ... والله أعلم.

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده، سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً ... ثم أما بعد...

فبعد هذه الرحلة الماتعة مع كلام السادة الأعلام في الشروط الواجب توافرها لفصاحة الكلمة المفردة، يجدر بالباحث أن يحط رحاله علىٰ شاطئ الخاتمة، مستعينًا بالله تعالىٰ في أن يضع بين يدي القارئ الكريم أهم النتائج التي رصدتها هذه الدراسة، وكانت محل النظر، ووافق العقل عليها البصر ... وهي ما يأتي:

أولاً: قرب مخارج الكلمة أو بعدها لا يصلح ضابطًا منفرداً يعول عليه في ضبط التنافر الموجود بين حروف الكلمة، وذلك لاشتمال الذكر الحكيم علىٰ كلمات متقاربة المخارج كـ(أعهد) في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس ٦٠] وكـ (صبحهم) في قوله : ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر ٣٨] ، واشتماله كذلك علىٰ كلمات بعيدة المخرج كـ (ألم) في قوله : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل ١] وكـ(علم) في قوله ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل ٢٠].

وإنما المعول عليه في ذلك هو الذوق القائم علىٰ موقع الكلمة من السياق، فما عده الذوق السليم ثقيلاً متعثراً فهو متنافر، وما لا فلا.

ثانياً :لا ينبغي التسليم بأن طول الكلمة ـ عن المعتاد ـ في كل الأحوال سبب لقبحها وخروجها عن وجه من وجوه الفصاحة، بل إذا ارتبط طول الكلمة بالمعنىٰ المراد تصويره، أو الهيئة المراد بيانها كان ذلك سببًا من أسباب فصاحتها كما

في ﴿أنلزمكموها ... فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ... لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ... فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ الخ ذلك مما هو بَيِّنٌ في كلمات الذكر الحكيم.

ثالثاً: القول بتوالي حركتين ثقيلتين علىٰ الكلمة الواحدة يجعلها ثقيلة علىٰ اللسان قول جانبه الصواب؛ لوجود كلمات اشتملت علىٰ ثلاث حركات ثقيلة أو أكثر من ذلك، دون أن يشعر اللسان بشيء من الثقل عند النطق بها، كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير ١٠] ، وقوله : ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة ٦١] ، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف ١٠١] ، وقوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة ٥٦].

وعليه فليست قلة الحركات أو كثرتها سببًا في خفة الكلمة أو ثقلها، وإنما المدار علىٰ الذوق الشفيف الذي من خلاله يفرق بين الثقل والخفة.

رابعاً: تعبير الكلمة الغريبة عن دقيق ما يراد منها شيء محمود في النظم البليغ، ولا يعد عيبًا يخرج الكلمة من دائرة الفصاحة، كما في (قمطريرا) الواردة في قوله : ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان ١٠] لأنها معبرة بدقة عن شدة وثقل يوم القيامة علىٰ الكافرين، وكما في كلمة (ضيزىٰ) الواردة في قوله تعالىٰ : ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم ٢٢] حيث دل النظم الكريم علىٰ غرابة القسمة التي ادعاها المشركون لأنفسهم - ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾- بأغرب الألفاظ الموجودة في كتاب الله تعالىٰ.

خامساً: ليس من مخالفة القياس المقابلة التي وقعت بين البكر والأيم في كلام أبي عبادة:

تَشُقُّ عَلَيْهِ الرّيحُ، كلَّ عَشيّةٍ ∴ جُيُوبَ الغَمَامِ بَينَ بِكْرٍ وَأَيِّمِ

وذلك لأن الحديث الشريف يقول: (لا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حتَّىٰ تُسْتَأْمَرَ، ولا تُنْكَحُ البِكْرُ حتَّىٰ تُسْتَأْذَنَ ... الخ الحديث) وإنما الفيصل في ذلك هو موقع الأيم من السياق، فإن جاءت وحدها شملت البكر والثيب معًا، كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [سورة النور:٣٢]، وإن جاءت مع البكر اقتصرت علىٰ الثيب فقط كما في قول البحتري والحديث الشريف.

سادساً: يجوز حذف جزء من الكلمة إذا كان المقام يستدعي ذلك، كما في حذف النون من (تكن) في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل ١٢٧] وعليه فليس كل حذف من الكلمة يعد مخالفًا للقياس اللغوي، بل إن الحذف المبني علىٰ علة نفسية أو حاجة داخلية يصح ولا يعد عيبًا.

سابعاً: حذف (أن) الناصبة وإبقاء عملها أمر جائز في لغة العرب، وليس مخالفًا للقياس اللغوي، لورود هذا الأمر بكثرة في القراءات القرآنية، والشعر العربي، والأقوال المأثورة عن العرب، وعليه فلا ينبغي الاعتماد علىٰ المذهب البصري في هذا الشأن دون سواه ممن كثرت لديه الشواهد علىٰ ورود ذلك.

ثامناً: ترجيح مذهب الكوفيين القائلين بجواز صياغة اسم التفضيل من (أفعل) الذي مؤنثه (فعلاء) كأسود وسوداء، وأبيض وبيضاء، لورود ذلك في الشعر العربي، ولمجيء الحديث النبوي به صراحة، حيث يقول عليه الصلاة والسلام عن حوضه : (وماؤه أبيض من اللبن) ولاشك أن قوله ﷺ ذلك يحسم كل خلاف بين اللغويين عند تقعيد القواعد.

تاسعاً: لا ينبغي أن يحكم علىٰ الكلمة بالكراهة أو القبح حتىٰ ينظر إلىٰ موقعها من النظم وملائمة لفظها للمعنىٰ المؤدىٰ بها والسياق الواردة فيه ، وذلك لأن

السياق هو المسوغ الرئيس المقنع في إيراد لفظة دون سواها مما يؤدي معناها في الظاهر.

وبعد...

فتلك أهم النتائج التي استطاعت هذه الدراسة أن ترصدها من خلال النظم العالي وبيان ما فيه من كلمات خالفت تقعيد البلاغيين لفصاحة المفرد، والرجاء من الله تعالىٰ أن تكون علىٰ طريق الصواب، محفوفة بالرضا والقبول.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهـرس المصـادر والمـراجـع

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

٢- ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي تح/ رجب عثمان محمد ـ مكتبة الخانجي بمصر ـ ط الأولىٰ ١٩٩٨م.

٣- إعجاز القرآن للباقلاني تح/ السيد أحمد صقر ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط الخامسة١٩٩٧م.

٤- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين والكوفيين لابن الأنباري ، المكتبة العصرية ط الأولىٰ ١٤٢٤هـ ٢٠٠٢م.

٥- ائتلاف النصرة في اختلاف نحاة الكوفة والبصرة للزبيدي تح/ طارق الجنابي ـ عالم الكتب ـ مكتبة النهضة العربية ـ ط الأولىٰ ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٦- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني تح/ محمد عبد المنعم خفاجي ـ دار الجيل ـ بيروت ط ٣.

٧- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي تح/ صدقي محمد جميل ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٤٢٠هـ.

٨- البلاغة العربية ـ عبد الرحمن حبنكة الميداني ـ دار القلم ـ دمشق ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

٩- البيان والتبيين للجاحظ ـ دار ومكتبة الهلال ـ بيروت ـ لبنان ١٤٢٣هـ .

١٠- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ، تح/ مجموعة من المحققين ، الناشر: دار الهداية.

١١- التأليف الصوتي في القرآن الكريم ـ هارون نوح معابدة ـ بحث منشور في دراسات علوم الشريعة والقانون ـ ملحق ١ لسنة ٢٠١٦ ـ عمادة البحث العلمي ـ الجامعة الأردنية .

١٢- تفسير أبي السعود دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

١٣- تفسير القرطبي تح / أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ ط الثانية ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.
١٤- التفسير الكبير للرازي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط الثالثة ١٤٢٠هـ.
١٥- تهذيب اللغة للأزهري تح/ محمد عوض مرعب ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ٢٠٠١م.
١٦- التوجيه البلاغي للغريب في الحديث النبوي ـ دراسة في أحاديث مشكاة المصابيح ـ إعداد/ كريم محمد محمد صديق ـ جامعة القاهرة ـ كلية دار العلوم ـ قسم البلاغة ـ ١٤٣٧هـ ٢٠١٦م.
١٧- الجرس الصوتي ـ دراسة جمالية في ألفاظ غريب القرآن د/ ياسر علي عبد الخالدي ـ كلية الأدب ـ جامعة القادسية ـ بابل ـ العدد ١٨ سنة ٢٠١٤م.
١٨- جماليات الموسيقىٰ في النص القرآني د/ كمال أحمد غنيم ، رائد الداية، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية بغزة ـ المجلد العشرون ـ العدد الثاني٢٠١٢م.
١٩- حاشية الدسوقي علىٰ مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني بتصرف تح/ عبد الحميد هنداوي ـ المكتبة العصرية ـ بيروت .
٢٠- الحيوان للجاحظ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط الثانية ١٤٢٤هـ .
٢١- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي تح/ عبد السلام هارون ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ط الرابعة ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
٢٢- خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسىٰ ـ مكتبة وهبة ـ ط السادسة ١٤٢٥ه٢٠٤٤م.
٢٣- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د/ عبد العظيم المطعني ـ مكتبة وهبة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
٢٤- الدر الفريد وبيت القصيد لـ/ محمد بن أيدمر المستعصمىٰ تح د/ كامل سلمان الجبوري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط الأولىٰ ١٤٣٦هـ ٢٠١٥م.

٢٥- دراسات في فقه اللغة د/ صبحي إبراهيم الصالح ، دار العلم للملايين ط الأولىٰ ١٣٧٩هـ ١٩٦٠.

٢٦- دراسات لأسلوب القرآن الكريم د/ محمد عبد الخالق عضيمة ـ تصدير / محمد محمود شاكر ـ دار الحديث ـ القاهرة (من دون تاريخ) .

٢٧- درر الفرائد المستحسنة في شرح منظومة ابن الشحنة (في علوم المعاني والبيان والبديع) لابن عبد الحق الطرابلسي (ت ١٠٢٤هـ) تح/ سليمان حسين العميرات ـ دار ابن حزم ـ بيروت ـ لبنان ـ ط الأولىٰ ١٤٣٩هـ ٢٠١٨م.

٢٨- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني تح/ محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ دار المدني ـ جدة ـ ط الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

٢٩- ديوان أبي تمام تح/ محي الدين الخياط ـ طبعة نظارة المعارف العمومية سنة ١٩٠٠م.

٣٠- ديوان المتنبي ـ دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٣١- ديوان امرئ القيس ص ٤٣ تح/ عبد الرحمن المصطاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت.ط الثانية ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.

٣٢- ديوان تأبط شراً تح/ عبد الرحمن المصطاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م .

٣٣- ديوان زهير بن أبي سلمىٰ شرح وتقديم / علي حسن فاعور ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ط الأولىٰ ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٣٤- ديوان طرفة بن العبد تح/ مهدي محمد ناصر الدين ـ دار الكتب العلمية ـ ط الثالثة ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

٣٥- ديوان عمر بن أبي ربيعة شرح د/ يوسف شكري فرحات ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٣٦- روح المعاني للآلوسي تح/ علي عبد الباري عطية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .ط الأولىٰ ١٤١٥هـ.

٣٧- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤٠٢هـ.
٣٨- سنن أبي داود تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت.
٣٩- شرح أبيات سيبويه للسيرافي تح / محمد علي الريح هاشم ـ الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ـ دار الفكر للطباعة والنشر ـ مصر ـ ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.
٤٠- شرح الرضي علىٰ الكافية ، تح د/ يحيىٰ بشير مصري ـ نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ـ الرياض ١٩٩٧م.
٤١- شرح المفصل لابن يعيش تقديم/ إميل بديع يعقوب ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط الأولىٰ ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.
٤٢- شرح ديوان الحماسة للتبريزي ـ دار القلم ـ بيروت.
٤٣- الشعر الجاهلي ـ منهج في دراسته وتقويمه د/ محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة .
٤٤- الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ١/ ٢١٢- دار الحديث- القاهرة – ١٤٢٣هـ .
٤٥- صحيح الإمام مسلم تح/ محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٤٦- صحيح البخاري تح/ محمد زهير بن ناصر الناصر ـ دار طوق النجاة ـ ط الأولىٰ ١٤٢٢هـ .
٤٧- ضرائر الشعر لابن عصفور ، تح/ السيد إبراهيم محمد ـ دار الأندلس للطباعة والنشر ط الأولىٰ ١٩٨٠م.
٤٨- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ـ بهاء الدين السبكي تح/ عبد الحميد هنداوي ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط الأولىٰ ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م.
٤٩- العزف علىٰ أنوار الذكر ـ د/ محمود توفيق ـ شبين الكوم ـ ط الأولىٰ ١٤٢٤هـ.

٥٠- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق القيرواني تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الجيل ـ ط الخامسة ١٤٠١هـ ١٩٨١م.
٥١- عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي بتصرف ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط/ الثالثة ١٤١٥هـ .
٥٢- غيث النفع في القراءات السبع لعلي بن محمد الصفاقسي تح/ أحمد محمود عبد السميع الشافعي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م.
٥٣- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا الأنصاري، تح/ محمد علي الصابوني ـ دار القرآن الكريم ـ بيروت ـ لبنان ـ ط الأولىٰ ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٥٤- الفسر (شرح ابن جني الكبير علىٰ ديوان المتنبي) المجلد الأول ، تح د/ رضا رجب ـ دار الينابيع ـ دمشق ـ ط الأولىٰ ٢٠٠٤م .
٥٥- في جمالية الكلمة دراسة جمالية بلاغية ونقدية د/ حسين جمعة ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ٢٠٠٢م.
٥٦- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ت/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ١٤١٩هـ .
٥٧- كتاب الغريبين في القرآن والحديث لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي تح/ أحمد فريد المزيدي ـ مكتبة نزار مصطفىٰ الباز ـ السعودية ط الأولىٰ ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
٥٨- الكشاف للزمخشري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط الثالثة ١٤٠٧هـ .
٥٩- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري لشمس الدين الكرماني ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ط أولىٰ ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م / ط ثانية ١٤٠١هـ ١٩٨١م.
٦٠- اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي تح/ محمد سعيد المولوي ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات ط ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.
٦١- لسان العرب لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط الثالثة ١٤١٤هـ .

٦٢- المآخذ علىٰ فصاحة الشعر إلىٰ نهاية القرن الرابع د/ عامر بن عبد الله الثبيتي ، الجامعة الإسلامية المدينة المنورة ، ط الأولىٰ ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م .
٦٣- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ضياء الدين بن الأثير تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة العصرية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٤٢٠هـ .
٦٤- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لابن جني ، الناشر: وزارة الأوقاف ـ المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.
٦٥- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده تح/ عبد الحميد هنداوي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.
٦٦- مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع لابن خالويه ـ ، بعناية (برجستراسر) ـ مكتبة المتنبي ـ القاهرة (دون تاريخ).
٦٧- المخصص لابن سيده، تح/ خليل إبراهيم جفال ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ ط أولىٰ ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
٦٨- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي تح/ فؤاد علي منصور ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط الأولىٰ ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
٦٩- مسند الإمام أحمد تح/ شعيب الأرناؤوط وآخرين ـ مؤسسة الرسالة ـ ط الأولىٰ ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.
٧٠- المعجم الوسيط ـ صادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ تح/ إبراهيم مصطفىٰ وآخرين ـ دار الدعوة
٧١- من بلاغة القرآن د / أحمد أحمد بدوي ـ نهضة مصر للطباعة والنشر ٢٠٠٥ ـ وجمالية المفردة القرآنية ـ أحمد ياسوف ٢٢٩ ـ دار المكتبي ـ دمشق ـ ط/ الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
٧٢- من روائع القرآن ـ محمد سعيد البوطي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م .
٧٣- مناقدة ابن سنان الخفاجي للمتنبي بين التحليل البياني والعمود الشعري ـ د/ علي عبد الحميد عيسىٰ ـ مطبعة العدوي ـ ط الأولىٰ ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٧٤- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري للآمدي تح/ السيد أحمد صقر ـ دار المعارف ـ ط الرابعة.
٧٥- النكت في إعجاز القرآن للرماني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تح/ محمد خلف الله ـ د/ محمد زغلول سلام ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط الثالثة ١٩٧٦م.
٧٦- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير تح/ طاهر أحمد الزاوي ـ محمود محمد الطناحي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
٧٧- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الجزري (ت ٦٠٦هـ) تح/ طاهر أحمد الزاوي ـ محمود محمد الطناحي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.
٧٨- الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ـ مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي وشركاه.

فهـــرس الموضـــوعات

الموضـــــــــــوع	رقـم الصفحـة
المقدمة	١٣٩
توطئة	١٤٦
المبحث الأول: خلو الكلمة المفردة من تنافر الحروف	١٤٩
المبحث الثاني: فكان بعنوان : الغرابة معناها وأسبابها	١٦٥
المبحث الثالث: مخالفة القياس والمراد منها	١٨٠
المبحث الرابع: الكراهة في السمع وحقيقتها	١٩٦
الخاتمـة	٢٠٥
فهرس المصادر والمراجع	٢٠٩
فهرس الموضوعات	٢١٦